ابو عكاز

و

قصص أخرى

د. محمد سليمان شاهين

UNIVERSITY OF KHARTOUM LIBRARY
LOCATION Sudan
ACC. No. 169620
CLASS MARK 8 LWCB

813.01
محمد

وزارة الثقافة والاعلام

الناشرون : -

ادارة الطباعة والنشر والرقابه
مصلحة الثقافه

الطبعة الاولى
١٩٧٤

حقوق الطبع الاولى محفوظه لادارة الطباعه والنشر والرقابه

الطابعون : مطبعة النيل الخرطوم

الاهداء * * *

ابنتـــى العزيزه :

انك اليوم طفلة صغـيرة تكافحـين كفاح الابطال وتعـانين اشـد المعاناة لقراءة الكلمة المكتوبة ، وكلما تمكنـت مـن قراءة جملة واحـده تسرعين بها الى وتسالينى فى لهفه .

ـ بابا .. مش كـده صح ؟

وتعيدينها على مسمعى . فاربت على رأسك متبسما وارشـدك للطريقة الصحيحة لنطق كلماتها او او ضح لك مالم تفهميه من معانيها .. وقلبى مفعم بحبك ، وشعور بالزهو يغمرنى .

هذا حالك اليوم ، وعما قريب ستصبحين شـابة ثم زوجـة وام وارجو من الله ان يطيل عمرك حتى ترى احفـادك . وربما عـن لك ان تقرئى هذا الكتاب فى أى مرحلة من مراحل حياتك هذه .

ولهذا فقد حرصت اشد الحرص ان لا تشـعرى بالخجل وانـت تقرئيه وان لا تخجلى ان تريه لاطفالك واحفادك .

أما اذا جعلتك تشعرين بالفخر ايضا فسيكون هذا توفيقا من الله مـا بعـده توفيـق .

محمد سليمان شاهين

الخرطوم ـ مارس ١٩٧٣

ابو عكاز

بقلم

محمد سليمان شاهين

القصه الفائزه بجائزة المجلس القومى
لرعاية الآداب والفنون سنة ١٩٧٢

خرج عيسى صباح ذلك اليوم من حجرته .. ودار بعينيه الكليلتين على تلك الحجرات التى رصت رصا حول الحوش الضيق مكونه دائرة غير مكتملة .. والتصقت ببعضها وكأنها تخشى السقوط ..

كانت كلها كحجرته من الطين المزبل حديثا .. انخفضت ابوابها حتى ليضطر الداخل اليها أو الخارج منها من تنكيس رأسه وتقويس ظهره .. حتى من كان منهم قصير القامة مثله .. كان شيء لا يدرى كنهه عيسى عالقا بالجو ينذر بكارثة وشيكة الوقوع .. وان هذا اليوم سيكون اسوا من سابقيه .. ربما كانت تلك الرائحة الكريهة التى انبعثت من أكوام الزباله اللينه والتى كانت اسراب غزيرة من الذباب تطن حولها وتدور .. أو ربما كانت حرارة الطقس الخانقه والتى جعلته يتفصد عرقا والنهار فى أوله فكيف يكون الحال عندما ينتصف .

واكتشف عيسى انه نسى سوطه بالداخل .. فانقبض قلبه اكثر فانه لا يذكر انه نسى سوطه يوما فى حياته .. فزفر بتأفف وهو يعود الى حجرته ..

كل الابواب كانت مغلقه .. فقد سبقه من يشاركونه هذا المسكن الكئيب الى الخروج .. خليل العتال والذى يعجب عيسى من مقدرته على حمل الاثقال وساقاه المتوستان الهزيلتان لا تكادان تحملان جسده ..

ومحمود الذى يدعى أنه يعمل خفيرا رغم أن عيسى رآه فى بعض اركان المدينة يفترش الأرض ويمد يمينه بالسؤال .. ومن يومها أصبح كلما التقيا يردد :ـ

ـ يا ساتر من الفضائح .. اللهم سترك ورضاك .

بلهجة يفهم منها عيسى ما يريد فيبتسم له مطمئنا . وعبده ماسح الاحذية والذى يفرح عندما يأتى الخريف وتصبح الاحذية فى حاجه أشد للنظافة والتلميع رغم أن الخريف يزيد اوجاعه من مرضه المزمن والذى لم تشفه جرعات منقوع القرض ولا البخرات ..

حتى الحاجه فاطمة العجوز صاحبة البيت والتى تدور حولها الهمسات بأنها قضت شبابها كله فى تهتك وفجور ، كانت قد خرجت بأحيالها من الفول السودانى والطعمية تلف بها وتدور حول مدارس الاطفال .

كم يكره هذه المرأة ذات الصوت الغليظ والنظرات الزجاجية . انها لاتنى تذكره بايجار حجرته حتى قبل ان ينتصف الشهر :ـ

ـ ان شاء الله تكون عامل حسابك الشهر ده ..

ـ انا ولية مسكينة ما عندى زول يصرف على ..

والويل له من كلماتها الجارحة التى تتظاهر بانها تقولها لعنزتها وهى تحلبها والتى يعلم أنها موجهة اليه اذا اكتمل الشهر ولم يدفع :ـ

ـ عنزه مامنها فايدة .. ماعندها شغلة غير الاكل .. الله يخلصنى منها ومن عفانتها .

كل هذا يهون ..ولكن الذى يغيظه حقا ويحنقه عدم رضائها عن ربطه لحصانه امام باب الدار .. ويدها تلك التى تمتد الى أنفها كلما دخلت او خرجت مارة به :ـ

ـ آجى ، يا بت امى آجى بيوت الناس سووهن زرائب .. ما قادرين تنوم من العفانه .. الله يخلصنى من الحصين واصحاب الحصين .

لقد حاولت الحاجه فاطمة وكررت المحاولات لزحزحة الحصان من مكانه فلم تفلح .. اذ ان عيسى لم يتخيل يوما أن يبيت حصانه جمعه الا على بعد خطوات منه وحيث يسمع صهيله وضربات حوافره على الارض فيطمئن .. ولم تيأس ولكنها غيرت اتجاه الهجوم .

ـ سمح .. كان داير تربطه جنب باب بيتى ادفع لى جنيه .

وكان رد عيسى هذه المرة ايضا حاسما :ـ

ـ ابيت .. الحصان والعربية بوقفهم بره فى الشارع ما جوه بيتك . والشارع شارع الله .

ويومها انبعثت صرخات من جانب وكلمات غاضبة لمح فيها بماضى بعض الناس من جانب آخر تدخل فيما بينهما الجيران وفضوها بصعوبه • من يومها اكتفت الحاجه فاطمة بتعليقاتها الساخرة وكلماتها الجارحه •

قفل عيسى باب حجرته وضغط على « الطبلة » التى أكلها الصدأ ثم جذبها عدة جذبات عنيفه ليتأكد انها انقفلت باحكام ثم ابتسم بمرارة « من هو اللص الأبله الذى يقصد حجرة كحجرته ؟ ! وأى شىء سيعثر عليه •• اهناك لص تغريه نفسه بسرقة عنقريبه الوحيد والذى تسلت حباله وانكسرت احدى قوائمه مما جعله يستعيض عنها بصفيحة فارغه •• ام تلك البطانية المتهرئة والتى ان غطى بها رأسه انكشفت ساقاه وان غطى بها ساقيه هجم البعوض الذى لايرحم على وجهه واذنيه •• حتى تلك العلبه والتى كان يحتفظ فيها عيسى ببعض المال ولايدفنها فى احد الاركان الا بعد أن يقفل عليه بابه ويتلفت حوله عدة مرات حتى هذه العلبة ملقاة الآن وقد علاها الصدأ ولم تتحرك من مكانها منذ شهور •••

«ماذاجرى للدنيا هذه الايام •• كسادفى كل شىء •• واللوارى •• الا لعن الله اللوارى ومن اخترعها •• لقد تكاثرت وزاد عددها فى الآونة الاخيرة •• ولكن حصانه جمعه لم يتعود عليها •• وربما لن يتعود عليها •• فلازال يثور وتضطرب خطواته ويجد عيسى صعوبة بالغة فى السيطرة عليه كلما مر بهما أحدها هادرا مرور البرق • وذلك النفير المزعج الذى لاتنى تطلقه فيخترق أذنيه مما يجعله ينفجر بالسباب ويلوح بيديه كلتاهما خلفها •• ولكن تلك اللوارى اللعينه لا تأبه بما يقول أو يفعل بل تنطلق فى طريقها وكأنها تسخر منه •

أن حمولة الواحد منها يكفى لعشر مشاوير على الأقل « ولكن يا عيسى لقد مرت بك وبحصانك ايام حلوة • ايامها لم تكن تشعر بالتعب أو الفتور وانت تحمل الجوال اثر الجوال من المخازن على ظهرك وترصها على عربتك حتى لا يبقى فيها مكان لجوال آخر ••

ولا تكاد تستوى على مقعدك وتطرقع بسوطك فى الهواء حتى ينطلق جمعة يبرطع فى شوارع المدينة وهو يوقع بحوافره الشابة القوية لحنا يلذ له سمعك وينشرح له فؤادك .. وكنتما لا تكادان تنتهيان من مشوار حتى تطلبان لمشوار آخر ، وتعودان آخر النهار مرهقين ولكنكما سعيدين .. فجيبك كان دائما عامرا بالنقود وبمؤخرة العربة كان هناك دائما عشاء وفير لجمعه .»

عيسى وجمعه ـ لقد طالت صحبتهما مدى عشر سنوات أو تزيد ومنذ ذلك اليوم السعيد الذى اشتراه فيه لم يفترقا ابدا .. حتى أن الرجل لم يكن يتخيل نفسه دون حصانه حتى فى احلامه .. فاذا كانت الأمور على مايرام ورأى نفسه فى حديقة غناء تحف بها الزهور كان جمعه هناك أيضا يرعى الحشائش خلى البال مرتاح الضمير .. أما فى تلك الأيام السوداء وحين يرى عيسى نفسه حين يأوى الى فراشه غريقا فى بحر غاضب مهتاج ، يكافح من أجل حياته بأصرار كان جمعه ايضا بجانبه يكافح الامواج معه ومنخراه مفتوحتان عن أخرهما منجهتان الى السماء ..

« ايه .. تلك كانت اياما سعيدة .. اين منها هذه الايام الكالحة .. لقد كبرت يا عيسى ولم تعد تقوى على القيام باعمال العتالة التى تتطلبها مهنتك .. وشاخ جمعة فلم يعد قادرا على الركض وذيله يهتز ذات اليمين وذات اليسار .. بل صار يمشى جارا العربة خلفه بخطى متثاقلة وقد تدلت رأسه حتى كادت تلمس التراب .. ان زبائن الامس اصبحوا يتهربون منكما ويفضلون عليكما الآخرين .

« وهذه اللوارى ... »

وبصق عيسى بصقة كبيرة على الارض مسح بعدها شفتيه بكم جلبابه .. وتوجه الى حيث حصانه وعربته .

« معليش .. ان دوام الحال من المحال .. ولابد لهذه الضائقة أن تنجلى . فان الله لاينسى احدا من عباده » وخرجت من اغوار عيسى ـ « يا كريم يارب . »

وكأنها آهة عميقة مزلزلة

حين أقترب عيسى من جمعه لم يجده واقفا كعادته متأهبا للمعاناة اليومية .. بل ظل راقدا مسندا رأسه على عجلة العربة .. وحين شعر بافتراب صاحبه لم يزد على أن رفع راسه بصعوبه ونظر اليه بعيون يائسة يكاد ينسكب منها الدم .. وخرج منه صهيل متقطع خفيض .. خفق قلب عيسى بشده وهو يندفع الى حصانه يتحسسه ويجسه ويداه ترتعشان من الخوف واللهفه .

كان يعانى من حمى عنيفة جعلت جسده كالاتون وانصب لها عرقه حتى تكونت بركة من الطين اللزج تحته .. وانهار الرجل بجانب الحصان .. واخذ يدلكه ويجفف له عرقه بذيل جلبابه ..

« ايه يا جمعه .. شد حيلك .. سلامتك .. لابأس فلنرتاح اليوم ولا نخرج .. ؟ .. ستقف انت طول النهار تحت وهج الشمس واقبع انا فى المقهى اتجرع الشاى بالدين وننتظر معا انفرج الذى لا يأتى .. أتعلم أن حزمة البرسيم التى أمامك والتى لم تلمسها .. استلفت ثمنها من الحاج على وتحملت فى سبيلها تأفف الرجل لان ديونه على زادت وتراكمت .. لا أحد يريدنا الآن ياجمعه ، وماحاجتهم الى رجل عجوز وحصان عجوز .. لا .. لا .. لاياجمعه اننا لسنا عجوزين .. وفينا المقدرة على العمل لو أعطينا فرصة .. ولكن أين لنا بهذه الفرصة .. انها اللوارى يا جمعه .. قطعت رزقنا وستقضى عليك وعلى .. كل الكبارى وأكثر شوارع المدينة صارت حراما علينا .. ولكن من يدرى ؟ ربما كان الفرج قريبا ولكنا لا نراه»

ولم يبالى جمعه بما يقول صاحبه او يفعل بل أغمض عينيه وراح يلتقط انفاسه بصعوبه يهتز لها جسده كله فاندفع عيسى راجعا الى حجرته ثم عاد بعد قليل يحمل كوزا اذاب فيه كمية من العطرون وراح يجرعها للحصان .. ثم قبع بجانبه .. وراح ينتظر وينتظر .

عادت الحاجه فاطمة آخر النهار لتجد عيسى جالسا بجانب جمعة واضعا رأسه بين كفيه وبجانبه محمود وخليل يهمهمان بكلمات غير مسموعة .. وبنظرة واحدة فهمت كل شىء وجاء صوتها الغليظ يقول

بقســـوة وفظاظـة : ـ

ـ الحصان مات ولا شـــنو .

وأومأ اليها محمود بالايجاب وهو ينظر لعيسى ببلاهة فاستطردت

ـ وقاعدين كده عشان حصان مات .. ماتنادوا الناس يجروه للخلا قبل ما يعفن علينا الحلة .

وقفز عيسى كمن لدغته افعى .. واتسعت حدقتاه بشكل مخيف واخذت شفتاه تتحركان بعصبيه دون أن يخرج صوت من حلقه ثم بدأ يلوح بيديه وكأنه يدفع حيوانا شرسا ينقض عليه .. وتقهقرت فاطمة مذعورة تسند قفتها بكلتا يديها حتى استندت على الحائط ..

وبدأ صوت عيسى كالفحيح ، ظل يرتفع حتى صار صراخا :

ـ ده حصان ده ؟ ده أخوى وأهلى ..

ده اللى كان معيشنى .. ده كان بيفهمنى وأفهمه .. ده ..

وحاول محمود وخليل أن يهدئا من روعه ويمسكا به ولكنه أفلت منهما والزبد يتطاير من فمه .

« انا عارف سبب المصايب دى كلهـا .. حأوريهم »

واختطف هراوه ضخمه واندفع خارجا لا يلـوى على شىء .. ولم يستطيع محمود أو خليل اللحاق به فعادا متقطعا الأنفاس .

لم يذهب عيسى بعيدا .. فقد اتجه لاقرب موقف للـوارى .. وهجم على احداها ورفع هراوتـه ونزل بها فى قـوة وعنف على أحـد اطاراتها .. ورغم أن الهراوة ارتدت اليه وشجت رأسه وسالت دماءه أنه لم يتوقف عن الضرب وهو يصيح :

« انت السبب يابت الكلـب »

وصار هذا دأبه كلما أصبح صباح .

ولما كانت تلك الاطارات قد صنعت بطريقة لاتؤثر فيها ضربـات هذا المعتوه .. ولما كان لحسن حظه لايضرب الا الاطارات .. فقـد تعود سائقو اللوارى ومساعديهم على صياحه جذلين كلما رأوه :

« أبو عكـاز وصـــل .. »

ويندفعون راكضين .. متظاهرين بالخوف .. وهم يقهقهون ..

وادى النحاس

لم يكن عز الدين افندى يدرى عندما ركب البص ذلك الصباح ان كل الذى حدث يمكن ان يحدث له خلال يوم واحد وانه سيجد نفسه فى دوامه عنيفه مدمره كادت تعصف بأعصابه وتذهب عقله .

لقد خرج مبكرا كعادته كل صباح وكان يحرص اشد الحرص على الخروج مبكراً لسببين اولا حتى يصل مكتبه فى الميعاد المحدد بالضبط وثانيا حتى يجد لنفسه مقعدا فى البص ينزوى فيه يتصفح جريدة الصباح ولا تكاد محطته التى ينزل عندها تأتى حتى يكون قد فرغ منها وطواها ووضعها فى جيبه . وهذا ايضا لسببين اولا لان قراءة الصحف فى المكاتب عادة سيئة ومضيعه لوقت الدولة وثانيا لان الصحف بعد قراءتها فوائد اخرى فيمكنك ان تلف بها ما تكون قد اشتريته للاطفال عند عودتك . اما فى اواخر الشهر فيمكن لزوجك ان تستعملها كمفارش للارفف والدواليب .

وما كاد عز الدين يجلس فى مكانه المفضل فى البص ويفتح الصحيفه حتى ازدحم البص كالعاده فى مثل هذا الوقت .. فعشرات الموظفين يهرعون الى مكاتبهم ليصلوا فى الميعاد المحدد اما بعد ذلك فالمشكلة تكون كيف يقتلون الوقت بين ثرثرة فارغة وقراءة الصحف وتبادل لا أخبار المراهنات ويتجادلون فى اى من الفرق اقوى .. حتى تأزف الساعة الثانية فيعودون الى بيوتهم .

كم صاح عز الدين فى زملائه قائلا ..

ـ اننا لصوص .. حرامية .. فليس اللص هو من يسرق مالا من آخر او يختلس من خزائن الحكومة فحسب ، ولكننا نسرق الدولة بهذه الثرثرة وتضيع الوقت .. اننا لانكاد نفعل شيئا نظير ما تعطينا من اجور ..

ثم يضحك ساخرا .. ويضيف ..

ـ وبعد كل ذلك نطالب بالعلاوات وتثور حين تتأخر الترقيات ولا ننسى حقنا فى الاجازات وكأن العمل قد ارهقنا ايما ارهاق .

ولم يكن الموظفون وحدهم لصوصا فى نظر عز الدين بل تقريبا كل الناس. فبائع الخضر الذى باعه حفنة صغيرة من الملوخية نظير خمسة قروش كاملة لص .. والجزار الذى يبيع باكثر من التسعيرة والا اعطاك لحما تأنف الكلاب ان تقربه .. لص .. والطبيب الذى يستغل لهفتك ويكشف على طفلك ثوانى معدودة ثم يكتب لك روشتة مألوفة مكرره ويتقاضى منك جنيهين كاملين لص ايضا .. واصحاب الاجزخانات لصوص ..

ولم يسلم من اتهامات عز الدين حتى رجال الدين فهم يؤمون الناس فى الصلاة ويبصرونهم بويلات القيامة ويخوفونهم من الكذب ويرغبونهم فى الصدق ولكنهم كثيرا ما يدعون لمرشح سياسى معين دون الاخر يهيلون عليه اوصاف التدين والتقوى وهم اعلم الناس بمجونه وفجوره .. انهم لصوص بل اسوأ انواع اللصوص لانهم يسرقون ثقة الناس العمياء فيهم ويبيعونها نظير ثمن بخس ودراهم معدودات .. فالناس كلهم أو معظمهم لصوص الا اقليه ضئيلة جداً من المعصومين وهو اى عز الدين يعتبر نفسه امامهم . .ولهذا فلم يكن غريبا ان اطلق عليه زملاؤه فى المكتب لقب الحنبلى .

فلم يتأخر عز الدين يوما عن عمله منذ عرفوه دقيقة واحدة ولم يثرثر مع زملائه حتى لايضيع وقت الدولة وحتى يحلل اجره ذلك اليوم .. وما يكاد يد خل المكتب حتى ينكب وفى الحال على الملفات يؤشر هذا ويحيل ذاك ولا يرفع رأسه الا حين تتحول كل الملفات من جانب « الداخل » على يمينة الى جانب « الخارج » على يساره ويبدأ المراسلة فى حملها على دفعات حيث تنتهى الى محطة اخرى من دورانها الذى لا ينتهى .. وقتها فقط يسند عز الدين ظهره على الكرسى متنهدا

بارتياح شأن من قام بواجبه خير قيام .. ويطلب واحد شاى « ليدخن سجاره بين الرشفات .. سيجاره واحدة فقط وطول اليوم هى كل ما ما سمح به عز الدين لنفسه ان يدخن .. اذ لو انه دخن اكثر يكون بذلك سالبا لثمن السجاير من قوت عياله .. أى انه يكون قد وقع فى دائرة اللصوصية والتى تكاد تحوى كل الناس فى هذا الزمن الاغبر وهذا مالم يفكر فيه عز الدين ابدا .

كانت هذه حياة عز الدين وكانت هذه مبادئه كان هذا الصباح . فما كاد يجلس ويفتح الجريدة اليومية .. وامتلأ البص حتى سقط شيء ثقيل على ساقه الممدودة ثم استقر على ارضية البص نظر عز الدين فاذا بهذا الشيء محفظة منتفخة تكاد تنفجر بما فيها ..

وللوهله الاولى فكر عز الدين فى أن يلتقطها ويصيح ..

ـ يا اخوانا محفظة منو دى ؟؟

ولكنه لم يفعل « وقال لنفسه ربما ادعاها غير صاحبها .. هل يسلمها للكمسارى اذن ؟؟ ولكن من يدريه ان الكمسارى لن يحتفظ بها لنفسه ولا يسلمها لصاحبها .. بل ربما اذا التقطها اساسا ظن الناس انه نشلها فتتلطخ صفحة سمعته والتى حرص طول حياته ان تظل بيضاء من غير سوء ..

اخذت افكاره تدور فى هذا الفلك وهو يتظاهر بالانهماك فى قراءة الصحيفة وينظر بين الفينه والفينه الى المحفظة الملقاة تحت قدميه بزاوية عينيه ثم الفى رجله تتحرك دون ارادة منه وكأنها مدفوعة بقوة غامضة لتزيح المحفظة وتدسها تحت المقعد الذى امامه ثم ترتد مسرعة وكأنها لمست جمرة مشتعلة ..

وصاح رجل يلبس جلابية فضفاضه كان يقف امامه وهو يضرب مكان جيبه بعصبية وجنون ..

ـ يازول دلينى . دلينى .. انا نسيت حاجة .. وغاص قلب عز الدين الى قدميه فلابد ان هذا هو صاحب المحفظه يظن انه نسيها بينما هى قابعة تحت المقعد .

وفتح عز الدين فمه لينادى الرجل ويعطيه المحفظة ولكنه اغلقه بسرعة وهو يتخيل الرجل ينظر اليه بريبه واتهام وصوته الغليظ يقول بسخرية ..

ـ امال كنت ساكت ليه ؟؟

وقهقهات الركاب والاحراج الفظيع الذى سيجد نفسه فيه ..

وقف البص فى غير محطته لينزل الرجل ثم تحرك ثانية .. ومرت محطة وجاءت اخرى وركب اناس حتى كاد البص ان ينفجر بهم وغادره آخرون ولم يسأل احد عن المحفظة فتأكد عز الدين ان ذلك الرجل هو صاحبها فجلس محاولا ان يتمالك اعصابه وان يثبت يده التى بدأت ترتعش وهى ممسكة بالجريدة . وليخفى كل ذلك استمر فى التظاهر بالقراءة ثم انتبه الى انه لم يقلب الصفحة منذ ان ركب البص فقلبها حتى يبدو طبيعيا رغم انه لم يقرأ حرفا واحدا .

وجاءت المحطة التى تعود ان ينزل عندها ولكنه لم يتحرك واقتربت محطة النهاية وغادر البص كل ركابه ولكنه لم يتحرك . واقترب منه الكمسارى وسأله بدهشة .

ـ انت نازل وين ؟؟؟

فاجاب عز الدين باقتضاب وبصوت حاول ان يكون طبيعيا ..

ـ فى آخر محطة ...

فذهب عنه ليتحدث مع السائق ..

وتلفت عز الدين حواليه فى توجس وتردد وبحركة سريعة القى الصحيفة تحت المقعد ثم رفعها وبين طياتها المحفظة .

« لا .. لا يا عز الدين انك لا تريد شيئا مما بداخل هذه المحفظة انك لا تسرقها ولكنك فقط تريد ان تذهب بها وتفتحها وغالبا ما ستجد اسم صاحبها وعنوانه بداخلها فتسلمها اليه وان لم تجد فستسلمها لاقرب نقطة بوليس .. »

ونزل عز الدين من البص بخطوات مضطربة وهو لا يزال يتلفت فربما يكون الكمسارى قد لاحظ شيئا بل ربما يكون السائق قد رآه

وهو يلتقط المحفظة فى المرآة التى امامه وربما تصل صيحة احدهما أو كلاهما الى اذنيه نأمره بالوقوف وربما فتشوه ليجدوا المحفظة فتكون الطامة الكبرى ومن سيصدقه ان قال انه ما كان يريد شيئا الا تسليمها للبوليس ليعيدها الى صاحبها ؟؟ ستكون هناك فضيحة وضجة وسيلتف حوله الناس وهم يصيحون به ويبصقون على وجهه وتتجاذبه ايديهم القذرة .

ولكن الكمسارى والسائق لم يعيراه اى اهتمام حتى ابتعد . فتنفس بارتياح ..

كان عليه ان يمشى طويلا من آخر محطة حتى مكتبه .. وخال الطريق طويلا لا ينتهى ورغم محاولاته ان يسير بثبات حتى لا يلفت الانظار اليه والى لفافته التى وضعها تحت ابطه الا انه لم يستطيع ان يسيطر على اعصابه وراح يتلفت يمنة ويسرة وخال ان عيون المارة كلها منصبة عليه تتفحصه . واسرعت خطواته دون ان يدرى ..

اعوذ بالله ، انه لم يكن يدرى ان المدينة بكل هذا الازدحام فاينما اتجه وجد عشرات الناس .. وهناك على ناصية الشارع وقف رجل بوليس وقد برز مقبض غدارته بروزا رهيبا من حزامه واذا بعز الدين افندى يسرع بعبور الشارع الى الرصيف المقابل دون ان ينتبه للسيارات التى راحت تزعق فى وجهه ولعنات سائقيها التى راحت تنهال عليه .

وكانت المصيبة الكبرى حين لاحظ ان شخصا ما يتبعه فابطأ من خطاه واذا بذلك الشخص يبطىء ايضا فدخل اول شارع جانبى صادفه .. وارتعدت كل خلية فى جسده رعبا حين دخل ذلك الشخص نفس الشارع .. لابد ان هذا الشخص هو صاحب المحفظه الملعونه او لعله من الشرطة السرية ..

وأسرعت ضربات قلبه وكأن هذا القلب يريد ان يطير من صدره ورغم برودة الجو احس عرقا باردا لزجا يتفصد من جسده ، واضطربت خطواته وفقد السيطرة على ساقيه . ولو استمرت هذه المطاردة الرهيبة

دقيقة اخرى لخر عز الدين افندى صريعا على اسفلت الشارع ولتوفاه الله فى الحال .. ولكن العناية الالهية تداركته فقد انعطف ذلك الشخص ودخل متجرا وتنفس صاحبنا الصعداء واسند ظهره الى حائط وراح يجفف عرقه الغزير ..

لا .. ان هذا لايطاق .. وهو يخاف على عقله ان يطير او يهتز . فليأخذ عربة اجره الى مكتبه .. مكتبه ؟؟ ولكن هل من الضرورى ان يذهب الى المكتب اليوم ؟؟ انه لم يأخذ اجازه منذ خمس سنوات . لماذا لا يعود الى بيته ويرتاح اليوم ؟ ولكن ماذا يقول عنه الزملاء الذين ظالما نعى عليهم اختلاسهم لحظات من وقت الدولة اذا هو اختلس يوما كاملا ؟؟

الاجازه ؟؟ ولكن للايجازات نظم وقوانين ومواسم محدودة من السنة وهم الان يضعون الميزانية ولن تكون هناك اجازات الا اذا انتهوا منها وسلموها .. ثم أن غيابه المفاجيء ربما أدى الى تساؤلات قد تؤدى بدورها الى شكوك واتهامات . .لا . . يجب ان يكون طبيعيا حتى لايشعر احد بما يحمل تحت ابطه من سر رهيب .

انه لا يريد ان يمتلك المحفظة وربما كان صاحبها الان يلف ويدور كالمجنون بحثا عنها فى كل مكان بل ولابد ان يكون قد ابلغ عن ضياعها فى كل نقاط الشرطة ولكن ربما ايضا كان صاحبها تاجرا ناجحا لن يؤثر فيه ضياع مبلغ من المال .. مبلغ من المال ؟؟ كم ياترى داخل هذه المحفظة ؟؟ انها منتفخة وثقيلة واذا كان ما بها عملات ورقية من فئة الخمسة والعشرين قرشا لكان مجموع ما فيها نظرا لانتفاخها مبلغا كبيرا من المال ولكن من المجنون الذى سيحمل ملء محفظته من الاوراق النقدية الصغيرة ؟؟ اغلب الظن ان يكون فيها جنيهات بل اوراقا من فئة الخمس بل والعشر جنيهات .

يا الهى ؟؟ اذا كان هذا صحيحا فلابد ان يكون المبلغ الذى بها يزيد على الآف عدة . رباه ؟؟ كم من الالاف ؟؟

ولمـــاذا كـــان صاحبـــها يركب البص ومعـــه هـــذا المبلـــغ الكبير ؟ لابد انه رجـــل بخيـــل شحيح وهـــو فى هـــذه الحالة يستحق ان يفقد ماله لانه لايدرى كيف يستفيد منه ..

* * *

وصل عز الدين الى العمارة التى بها مكتبه ولاول مرة فى حياتـــه ثم يقطع السلم قفزا كما كان يفعل بل اســـتند على الدرابزيـــن وراح يسحب جسده صاعدا وكأن هذا الجسد قد استحال الى رصاص ثقيل او كان خمسين سنة قد اضيفت الى عمره فى لحظات ..

صاح الزملاء بمرح وهم ينظرو نالى ساعاتهم ..

ـــ الحنبلى سرق من وقت الحكومة نصف ساعة .

وقال الباشكاتب بوقـــار .

ـــ لماذا تأخرت يا عز الدين افندى على غير عادتك ؟؟ والله لقد قلقنا عليـــك ..

وتلعثم عز الدين قائـــلا ..

ـــ ابنى الكبير داهمه مرض عنيف ولم يغمض لى جفن البارحة .

اتكذب ايضا يا عز الدين ؟؟ هل كنت لصا وكاذبا فى اعـــاقك ولكنك كنت تتستر وراء حائط اقمته من ادعاء الاستقامة والامانة ؟؟

وقال الباشـــكاتب ..

ـــ ما بك يا عز الدين ؟؟ لقد سرحت بعيدا .. شد حيلك يا اخى فكل الاطفـــال يمرضون .

وذهب عز الدين الى مكتبه وكان أول شىء فعله هو ان فتـــح الدرج ودس فيه اللفافة اللعينة واقفلة بالمفتاح ثم سحب الملف الاول .

« السيد الوكيل .. الموضوع .. بالاشارة الى . وزارة خطابكم »

لا .. لا .. ان هذا غير معقول ان السطور تتداخل واخـــذت الكلمات ترقص امام ناظريه رقصات مجنونة ..

وأعتمد رأسه بين كفيه وشعر لاول مرة بذلك الصداع الفظيـــع الذى راح يطحنها .. « من المستحيل ان تعمـــل اليوم يا عز الدين أو

تركز ذهنك فى شىء ما وتلك اللفافة اللعينة فى درجك .. قم واتصل بالبوليس تلفونيا .. ولكنهم سيحضرون ويستجوبوك امام كل الزملاء .. ويتكشف امرك ويظهر معدنك الحقيقى للجميع .. أذن تظاهر بانك تعمل .. بل حاول ان تشغل تفكيرك بالعمل ، ولكن الخطأ لن تحمد عقباه وانت لابد ستخطىء فى حالتك النفسية الراهنة » .

وجد نفسه ينهض مرة ثانية ويتجه صوب مكتب الباشكاتب وبصوت مضطرب .

ــ انى تعبان جدا اليوم .. وقلق على صحة ولدى . . ولم اخذ اجازة منذ خمس سنوات .

وقاطعه الباشكاتب بعطف ..

ــ أتود ان ترتاح اليوم ؟

وأومأ عز الدين بالايجاب ..

فاستطرد الباشكاتب . .

ــ انك تعلم النظم والقوانين فى مثل هذه الحالات . . ولكنى سأتغاضى عن هذه القوانين لانى اراك فعلا مرهقا ومشغول البال . يمكنك ان ترتاح اليوم ..

ولم ينتظر عز الدين بل هرول الى مكتبه ليحمل اللفافة ويجد نفسه فى الشارع مرة اخرى .

***

ولايدرى عز الدين كيف وصل الى بيته وكل الذى يدريه انه اخذ يقرع باب البيت قرعات سريعة ملهوفة مما جعل زوجته تأتى وتفتح الباب وملامحها يرتسم عليها الزعر وفى يمينها (الكمشه) التى كانت تقلب بها شيئا ما ..

وسألته بدهشة وخوف ..

ــ ما بك كفانا الله الشر هل حدث شىء

واشار لها على رأسه

ــ صداع ، صداع فظيع .

واندفع الى حجرة نومه .. وحمد لزوجته انها لم تلاحظ اللفافة المشئومة تحت ابطه وانها اتجهت الى المطبخ ربما لتنقذ الطبيخ من الاحتراق .. وفتح هو دولابا واختار ابعد زاويه فيه ودس لفافته واهال عليها الملابس ثم غير ملابسه واستلقى على سريره .

انه يعلم ان زوجته ستأتى بعد قليل وانها ستسأله عن صحته وتلح فى السؤال عما اعاده مبكرا وستصر على ان تعمل له شايا ثقيلا كالقطران عليه ان يتجرعه بعد ان يبتلع قرصين من الاسبرين ثم تغطيه وتذهب عنه لتكمل اعمال البيت .. وحينئذ فقط تتاح له الفرصة ويختلى بنفسه ليفض اللفافة ويفتح المحفظة ليعرف كم من المال تحتويه وحصل كل ما توقع عز الدين ان يحصل ولكنه لم ينس ان يوصيها وهى خارجة بالحاح ان تبعد عنه الاطفال حين يعودون من مدارسهم لانه يريد ان ينام .

وما كادت الزوجة تخرج حتى انسل عز الدين من فراشه واتجه صوب الدولاب وفتحه وراح يزيح اكوام الملابس ولكن ما كادت يده تلمس اللفافة الملعونه حتى انفتح الباب واطلت منه زوجته مرة أخرى ..

ـ انت كويس الآن ؟ ما داير حاجه تانى ؟

وانفجر بركان من الغضب فى صدر عز الدين واخذ يصيح وهو يلوح بكلتا يديه فى جنون ..

ـ ما داير حاجه .. ما داير حاجه ... خلاص سيبونى .. خلونى انام شويه اعوذ بالله .

وفرت زوجته مذعورة ولم ينسى هو هذه المره ان يغلق على نفسه الباب بالمفتاح ..

***

عاد عز الدين باللفافة ووضعها على السرير وجلس بجانبها وامتدت يداه تفضان الجريدة عن المحفظة وهما ترتعشان من اللهفة ولكنهما ارتدتا اليه بمجرد لمسهما للمحفظة وكأنه سيفتح صمام الامان لقنبلة شديدة الانفجار ستنسفه وبيته وكل مافيه ومن فيه وتقذف بكل

شيء قطعا فى كل اتجاه ..

وحاول مرة ثانية وثالثة ولكنه لم يجرؤ فتنهد بضيق ولفها بالجريدة مرة اخرى وعاد بها الى ركنها من الدولاب واستلقى على سريره يحاول النوم ويتناسى كل شيء ولكنه لم يقدر وجفا جانبه الفراش .

كان ذلك اليوم اطول يوم فى حياة عز الدين واخذت الدقائق والثوانى تمر ببطء قاتل وهو موزع النفس بين ان يفتح المحفظة الملعونة وبين حملها كما هى وتسليمها لأقرب نقطة بوليس

ولكنهم لن يريحوه هناك وسيطلقون فى وجهه اسئلتهم الكثيرة المنعضه بسرعه تجعله يلهث خلفها ..

ــ اسمك ؟ عنوانك ؟ ماذا تعمل ؟ متى وجدتها ؟ هل فتحتها ؟ كم من المال بها ؟ ولماذا لم تسلمها فورا ... و ...

اسئله كثيره لن تنتهى بخير على اى حال من الاحوال وصاح به هاتف بداخله ... «يا عز الدين هذه فرصتك لا تكن احمقا جبانا ان هذه المحفظة وما فيها ملكك الآن انك لم تسرقها بل وجدتها ملقاة ولم يسأل عنها احد فضها وخذ ما بها وألق بالمحفظة الفارغة فى بئر فربما كانت هذه نقطة التحول الكبير فى حياتك لماذا تعيش طول حياتك جبانا تتمسك بمثل لا يعيرها احد اليوم مجرد لفته » .

ولكن فى نفس اللحظه اهاب به هاتف آخر يحاول جاهدا ان يسكت الاول ويكتم انفاسه لا يا عز الدين لقد عشت نظيفا شريفا طول حياتك ، والشرف لا يقدر بثمن .. وما اسهل ان يغتنى المرء ان هو تخلى عن شرفه ومثله ..

« ان هذه المحفظه لا تخصك والذى فيها ليس ملكك .. سلمها للسلطات ونم مرتاحا هادىء البال .. اتربى اطفالك من مال حرام ؟ لقد سقط كل من اغتنى بالحرام طال الوقت ام قصر .. ان القناعة كنز لا يفنى ... »

وحاول عز الدين ان يسكت الهاتفين معا ويخرسهما فسد اذنيه

باصابعه وراح يهز رأسه بعنف وقوة ولكنه لم يفلح .. استلقى على فراشه ووضع الوساده فوق رأسه وضغط عليها حتى كادت انفاسه تزهق ولكن دون جدوى . فقد ظل صوت الهاتفين يرنان فى وجدانه وهما يتجادلان ويتجاذبانه حتى شعر فعلا بصداع رهيب راح يضرب رأسه وكأنه مطرقة من حديد ...

***

طرقت زوجته الباب تحمل الغذاء ولكن صوته اتاها غليظا قاسيا من خلف الباب انه لا يريد شيئا ولا يريد احدا ...

وعاد الى ما كان فيه من عذاب لا يكاد يستلقى على فراشه حتى يهب واقفا يذرع حجرته جيئة وذهابا ويلف فيها ويدور وكأنه وحش حبيس عاقدا ذراعيه خلف ظهره وتدلى رأسه والتصقت ذقنه بصدره .

***

لم يفتح عز الدين الباب الا بعد غروب الشمس وكان الارهاق الذهنى والجسمى قد بلغا منه كل مبلغ فاندفعت زوجته واطفاله داخلين وملامحهم مرسوم عليها القلق والخوف عليه وراحوا جميعا يسألون عما به باصوات ملهوفة مختلطة ولكنه نظر اليهم بعينين محمرتين من الاجهاد ولم ينبس ببنت شفه بل استدار ليواجه الحائط واغمض عينيه ..

***

اخذ العرق يتصبب من كل جزء من جسده العارى وهو يمشى فى وادى النحاس .. وحيدا حافى القدمين .. وكانت الشمس الحارقه قد انتصفت كبد السماء ووقفت هناك لا تريم .. واخذت ترسل اشعتها النارية كقطعة من جهنم دون هوادة .. فتنعكس تلك الاشعة على قمم الجبال الحمراء اللامعة فتبهر عينيه المتعبتين حتى لا يكاد يتبين موقع قدميه ...

ولكن ما أهمية ان يتبين مواقع قدميه ؟؟ فالوادى طويل لا يدرى من اين بدا والى اين ينتهى .. لا ظل يحتمى به ويريح عنده قدميه الملتهبتين .. لا جرعة ماء يطفىء بها أواره ولا مخرج له يراه من وادى النحاس ..

ولكن أين الناس ؟؟ كل الناس ؟؟ اين زوجه واطفاله ؟؟ لا أحد.. لماذا تركوه وحيداً يمشى فى وادى النحاس ؟؟ .

كور كفيه حول فمه وصرخ صرخة اهتز لها الوادى كله بجباله النحاسية واخذ يصرخ ويصرخ بملء رئتيه حتى آلمه صدره واخذ يسعل .. ولكن لا مجيب غير صدى صرخاته تتردد فى جنبات الوادى وقد اكتسب رنينا رهيبا كمقرعتى نحاس بين يدى معتوه مهتاج ..

حاول تسلق احد الجبال عل الدنيا التى عرفها والفها تكون خلفه ولكن قدميه انزلقتا ... فكرر المحاوله . دون جدوى .. فعاد يسير فى وادى النحاس دون امل فى الوصول ..

وهب من نومه مزعورا ليجد زوجه تهزه بعنف من كتفيه وهى تناديه فنظر اليها بعيين متنفختين لم يزل بهما آثار من رعب رهيب وسمع صوتها تسأله ..

ـ لا بأس عليك ، ان الحمى تكاد تفرى جسدك ؟؟

واخذت تجفف العرق الغزير الذى تفصد من جبينه الملتهب ... ولكنه غمغم

ـ لا لست مريضا ...

ولدهشة زوجته البالغة قفز فجأة من فراشه واخذ يلبس ملابسه على عجل وفتح دولابا وتناول منه لفافه تأبطها وخرج من البيت لا يلوى وكأن فى اعقابه الشياطين ..

وصاحت زوجته ...

ـ الى اين ؟؟ ان الساعة الآن الواحدة صباحا ..

ولكنه لم يظهر عليه انه سمع بل خرج وصفق الباب خلفه وطواه ظلام الشارع ..

ولكن ما أهمية ان يتبين مواقع قدميه ؟؟ فالوادى طويل لا يدرى من اين بدا والى اين ينتهى .. لا ظل يحتمى به ويريح عنده قدميه الملتهبتين .. لا جرعة ماء يطفىء بها أواره ولا مخرج له يراه من وادى النحاس ..

ولكن أين الناس ؟؟ كل الناس ؟؟ اين زوجه واطفاله ؟؟ لا أحد.. لماذا تركوه وحيداً يمشى فى وادى النحاس ؟؟ .

كور كفيه حول فمه وصرخ صرخة اهتز لها الوادى كله بجباله النحاسية واخذ يصرخ ويصرخ بملء رئتيه حتى آلمه صدره واخذ يسعل .. ولكن لا مجيب غير صدى صرخاته تتردد فى جنبات الوادى وقد اكتسب رنينا رهيبا كمقرعتى نحاس بين يدى معتوه مهتاج ..

حاول تسلق احد الجبال عل الدنيا التى عرفها والفها تكون خلفه ولكن قدميه انزلقتا ... فكرر المحاوله . دون جدوى .. فعاد يسير فى وادى النحاس دون امل فى الوصول ..

وهب من نومه مزعورا ليجد زوجه تهزه بعنف من كتفيه وهى تناديه فنظر اليها بعين متنفختين لم يزل بهما آثار من رعب رهيب وسمع صوتها تسأله ..

ـ لا بأس عليك . ان الحمى تكاد تفرى جسدك ؟؟

واخذت تجفف العرق الغزير الذى تفصد من جبينه الملتهب ... ولكنه غمغم

ـ لا لست مريضا ...

ولدهشة زوجته البالغة قفز فجأة من فراشه واخذ يلبس ملابسه على عجل وفتح دولابا وتناول منه لفافه تأبطها وخرج من البيت لا يلوى وكأن فى اعقابه الشياطين ..

وصاحت زوجته ...

ـ الى اين ؟؟ ان الساعة الآن الواحدة صباحا ..

ولكنه لم يظهر عليه انه سمع بل خرج وصفق الباب خلفه وطواه ظلام الشارع ..

قلب ضابط البوليس اللفافه بهدوء وبيدين ثابتتين ثم فضها وهو يسأل زميله بلهجه روتينيه ..

ـ هل وصلت اى بلاغات عن محفظة مفقودة اليوم ؟؟

ولدهشة عز الدين اجاب الآخر دون اكتراث ...

ـ لا لم تصل أى بلاغات ..

وفتح الضابط المحفظه ورفعها مقلوبه فتقيأت ما بداخلها فى كومة كريهة المنظر واتسعت حدقتا الضابط وهو ينظر الى هـذه الكـومة الخبيثه وقال وصوته يرتعش من الأنفعال ..

ـ دى ماقروش ... دى مخدرات ...

وشد عز الدين قبضته على مسند الكرسى وصرخ ....

ـ كمان ؟؟؟؟ اعوذ بالـ .....

ولم يكمل فقد اغمى عليه ....

***

الثمن

الساعه الثانية والنصف بعد الظهر وشمس الخرطوم القائظة ترسل شواظها دون رحمة فتلهب الرءوس . وانزوى الناس فى كتل وجماعات يحتمون بالظل هنا وهناك وراحوا يلهثون . واخذت يد سليم افندى تمتد بحركة آلية بين جيبه لتخرج المنديل المبتل وجبينه الذى يتصبب عرقا غزيرا سال حتى غطى عينيه ـ ومن آن لاخر تمتد يده الاخرى لمقدمة قميصه او مؤخرته لتزيحه عن جسده الذى التصق به .

وكأنما كان كل شىء قد تحالف ضد سليم افندى فى هذا اليوم الجهنمى الملعون فقد مر البص الاول والثانى والثالث مرور البرق بالمحطة التى كان ينتظر عندها دون ان يفكر سائقوها حتى ولو فى مجرد تخفيض سرعتها الجنونية ـ وكلما اقترب واحدمنها اندفع العشرات من الواقفين نحوها ، يجرون خلفها ككلاب مسعوره لبضع امتار ثم يعودون بعد ان تعيهم محاولة اللحاق بها .. ويعودون وهم يسبون ويشتمون بأنفاس لا هثه متقطعه ـ ولكن سليم افندى لم يعتب على سائقى تلك البصات ووجد لهم فى دخيلته العذر كل العذر فقد كان يرى الاجساد مرصوصة داخلها رصا وتعلقت بالأبواب عشرات الايدى وراحت هذه الكتل البشرية تهتز مع اهتزاز العربة وكأنها الخراف المذبوحة فى عربة من عربات السلخانة .

لا لم يعتب سليم افندى كثيراً على سائقى البصات ولكن سخطه وغضبه انصبا على سائقى الطراحات ـ ألم يكونوا بالامس القريب يحومون حوله وكأنهم حشرات صفراء قذرة .. تحوم حول مصباح .. ألم يرددوا على اسماعه باصواتهم القبيحة المشروخة تلك الجملة التى سمعها حتى مجها ..

ـ امدرمان نفر .. نفر امدرمان .. ما ماشى ياسيد ؟؟

مالهم اليوم يشيحون بوجوههم عنه وكأنه قد انقلب بين يوم وليله مريضا يخشى الاقتراب منه .

وتردد صوت سليم ضعيفا يلهث بغيظ .

ـ يا ملاعين .. تريدون ان آخذ طلبا ؟! والله ان هذا لن يكون حتى ولو وقفت حتى الخامسة . .لا بأس .. فليكن اليوم اول الشهر ولكنه يوم او يومان وتعودون للنباح واستجداء المارة » .

وتذكر سليم افندى بيته الحكومى واسرته فى احدى الاقاليم البعيدة .. وشعر بحنين طاغ اليهما والى مدرسته القريبة من بيته .. انه هناك لا يحتاج الى انتظار البصات . او الطرحات ليصل فالطريق قصير يقطعه ماشيا جيئة وذهابا شامخ الانف مرفوع الجبين . .لا يكف عن رفع يمناه وخفضها ردا على تحيات القرويين الذين يحيونه باحترام واكبار .. فمن لا يعرف سليم افندى فى ذلك الاقليم ؟

سليم افندى استاذ اللغة العربية ونائب الناظر والذى لا ينطق جملة واحدة دون ان يرصعها بكلمات عربية فصحى يعوج بها لسانه حتى تخرج سليمه وقد اخذ كل حرف من حروفها حقه كاملا وكان هذا يجذب اليه اسماع القرويين ويكسبه احترامهم لاسيما حين كان يقف بينهم خطيبا يبصرهم بامور دينهم ودنياهم عقب صلاة العشاء وارتاح هو لهذه الهالة التى حوله واستمرأها بالرغم من انه لم يصل الى كل ما يريد ـ كم كان يتمنى ان يدخل كلية الآداب فقد كانت الكلية الوحيدة التى فكر فى الالتحاق بها ولم يفكر فى سواها اطلاقا . انه لم يتخيل نفسه طبيبا فى يوم من الايام ولا قاضيا ولا شيئا من هذا القبيل ولم ير نفسه فى احلام يقظته او منامه الا كاتبا كبيرا يشار اليه بالبنان وتتلقف دور النشر ما تخطه يمناه .

كثيرا ما قال لنفسه ان الطبيب المشهور ينسى بمجرد وفاته والقاضى زائل ولكن الخلود دائما للأدباء الذين هزوا ضمير الانسانية

وايقظوه من السبات العميق .. ان الكلمة هـى التى حـركت الناس واشعلت الثـورات .

ولكن سليم افندى لم يوفق فى الالتحاق بكلية الآداب ولا اى كلية اخرى فقد وقفت الرياضيات والعلوم واللغة الاجنبية كسد منيع اعياه مناطحته .

وهز سليم افندى كتفية اخيرا حين اعيته الحيل واقنع نفسه بان عظماء الكتاب والذين كان من نصيبهم الخلود لم يكونوا من خريجى كلية الآداب بل لقد آمن ان هذه الكليات تجمد الاحساس وتقيد حرية الافكار فى طلبتها بما تلقنهـم اياه من قواعد ونظـريات .. جامـدة متحجرة ..

وانطلق سليم فى الطريق الذى رسمه لنفسه لا يلوى على شىء انطلق يكتب ويكتب بطريقة محمومة .. سهر الليالى .. وأستـهلك براميلا من الشاى السادة وجوالين من القهوة واحرق الوفا من السجاير ولكنه لم يتقدم خطوة وكأن كـل محررى الصـحف والمجلات قـد تآمروا لتحطيمه واهماله . حاول المقاله وأرسل انتاجه الى احـدى الصحف وانتظر مدة كافية ثم اخذ يشترى الصحيفة وبلهفه وايـد مرتعشه يقلب صفحاتها الواحدة تلو الاخرى .. ولكن لا شىء

فحاول القصة القصيرة وكانت نفس النتيجة .

مرة واحدة رأى اسمه بحروف مطبوعة وكان فى ركـن رسائل القـراء ..

الى القارىء سليم ..

لماذا لا تكتب ببساطه ووضوح ؟؟؟

والقى سليم الصحيفه بعد ان كورها بين كفية باشمئزاز واحتقار .

ـ انا لا اكتب ببساطة ووضوح يابهائم ..ثم من يكون هذا الكاتب حتى يحكم على اسلوبى وانتاجى .. تبا لهذا البلد يقود حركته الادبية بعض التافهين ..

وحين وصل سليم الى هذه النقطة من شريط الذكريات كان قـد

نسى المحطة التى يقف عندها فى انتظار البص .. ونسى الحر القاتل ونسى الناس .. وراح يلوح بقبضته بعنف وقسوة وقد تقلصت ملامحه وكأنه مقبل على معركة هائله مما جعل الواقفين بجانبه ينظرون اليه بدهشه ويبتعدون عنه خطوات .

وفجأة سمع سليم صوتا وكأنه يصدر من قاع سحيق ينادى اسمه فتلفت يمنة ويسرة ولكنه لم ير احدا .. عادت يده الى حركتها الآلية تجفف جبينه . ولكن الصوت المجهول ناداه مرة ثانية واذا بيد تلوح من داخل سيارة وقفت على بعد خطوات منه ..

حاول تجاهل الامر عل المنادى يقصد احدا غيره يحمل نفس الاسم .. وعادت نظراته تراقب الطريق لعل بصا يعطف عليهم ويقف ولكن باب السيارة انفتح وخرج منه شخص اتجه اليه .

ـ سليم .. مالك يا اخى .. سارح فى شنو ؟؟

وامعن سليم النظر فاذا بصديقه القديم وزميل الدراسة حسين والذى لم يره منذ عشر سنوات . منذ افترقا بعد ان اكملا الثانوية وذهب كل فى طريقه .

ولم يجد سليم بدا من احتضان صديقه رغم شعوره بحرج شديد لذلك العرق الغزير الذى ابتلت به ثيابه .

سأله حسين وهو يصحبه الى سيارته .

ـ اين انت يا سليم . .وماذا فعلت بك الايام ؟؟

وحرك سليم لسانه الجاف بين شفتيه يبللها به وعيناه تجولان داخل السيارة الفاخرة وشعر ببرودة تنتظم جسده الملتهب من مكيف الهواء بالعربة الذى لم يتوقف عن العمل ثم اجاب بمرارة .

ـ فى الاقاليم .. انقل من مدرسة فى اقليم ناء الى مدرسة اخرى فى اقليم آخر اما ما فعلت بى الدنيا فكما ترى ..

وحاول ان يضحك .. ولكن ضحكته خرجت ميتة لاحياة فيها ثم التفت الى صديقه وقال .

وانت ؟؟ ولكن اظن لا داعى لمثل هذا السؤال فانى اراك قد نجحت فى حياتك .

فمط حسين شفتيه باستخفاف ..

ـ لا ولكنها الفرص وكل ما تحتاج اليه هو ان تقتنصها ولا تدعها تفلت من يديك .

ـ ولكن الفرص ربما لا تأتى ؟؟

ـ اذن فابحث عنها فى مظانها .

ـ ولا تنسى ان الفرص تختلف فمنها الشريفة وهذه نادرة فى هذه الايام اما اكثر الفرص المتاحة فتجلب العار ولا تدع ضميرك يرتاح لحظة ، وتقلق المنام .

فوضع حسين ابتسامة اقرب الى التكشيرة فى زاوية فمه وقال بين اسنانه ..

ـ الشرف والضمير ؟؟ اراك لم تتغير على الاطلاق .. ان الشرف والضمير وامثالها كلمات تقال لهؤلاء الرعاع الذين تراهم يسيرون على جانبى الطريق حتى يأمن من عندهم الكثير شر من لا يملكون شيئا .. انها كلمات مرادفة للغباء والخمول .. ولا تنسى ان كلمة الشرف كلمة مطاطة كل يفسرها حسب هواه .. فما يراه المظلوم شرفا ينظر اليه الظالم على انه العكس لان هذا الشيء ضد مصلحته . يا سليم اننا فى عصر يجب ان تتنحى فيه الاخلاقيات الموروثة لتفسح المجال للمصلحة . ان المصلحة هى التى يجب ان تحدد نوعية الاخلاق وليس العكس ..

وتساءل سليم فى دهشة ..

ـ عن أى مصلحة تتكلم ؟؟ المصلحة الفردية الذاتية ام مصلحة المجتمع .. وضحك حسين طويلا قبل ان يقول ..

ـ ما مصلحة المجتمع ان لم تكن مجموع مصالح افراده ؟؟

وقال سليم ببلاهة .

ـ حتى اذا ما تعارضت المصلحة الفردية مع مصلحة الجماعة .

وقال حسين بتصميم وهو يضرب عجلة القيادة بقبضته .

ـ نعم حتى اذا تعارضت .

ـ هل تتخلى اذن عن كل المثل والتقاليد ؟

وجاء صوت حسين يقطر سخرية .

ـ وماذا فعلته لنا المثل والتقاليد ؟ .

وصمت سليم برهة فقد عرف عن حسين أنه كان دائما قناصا للفرص منذ تلك الايام التى لم يكن يتحرج فيها عن النظر من فوق كتفه اثناء امتحانات اللغة العربية لنقش الاجابة بعد تعديل طفيف للتعمية .. ثم قال مغيرا مجرى الحديث .

ـ ولكن ماذا تعمل الآن .. ان آخر ما اذكره عنك هو جلوسنا فى المحطة الوسطى وتدبيج الطلبات للمصالح والشركات .

ـ تعجلت انت والتحقت بالتدريس اما انا فثابرت حتى نلت وظيفة فى شركة كبيرة وانا اليوم احد مديريها .

***

حين خرج سليم من « ڤيلا » حسين بعدأن لبى دعوته للغذاء معه كانت تعتور نفسيته ثورة عارمة طاحنة . واختفت تلك القناعة التى كان قد حمل نفسه على قبولها حتى تعودها ، وبدأ له اعجاب القرويين بحديثه المرصع بكلمات فصيحه اعجابا فارغا تافها .. بل تبدت له كل حياته بكل تفاهاتها وحقارتها وتذكر منظر مكتبه المترب ونوافذه التى غطت بسلك النمليه لتمنع الذباب دون فائده ، وذلك الحر الخانق الذى يعانون منه طول اليوم ويظهر فى ملامح طلبته ارهاقا ما بعده ارهاق ، وخمولا لا يدانيه خمول . وتذكر الثلاثة مدرسين الذين يقاسمونه ذلك المكتب واحاديثهم عن الفلس ولما ينتهى الربع الاول من الشهر وتلك القله التى يتخاطفوها بينهم وتتبادلها افواههم دون مراعاة لأبسط قواعد الصحة والذوق .

واولئك الصبيه مهزولى الاجسام متهرئى الثياب والذين يحاول جاهدا ان يلقنهم اشعار امرىء القيس والخنساء فيحاولون بصعوبه ان يكتموا ضحكهم من طريقته فى نطق الكلمات ..

وبيته .. وتنهد سليم بعمق وأسى حين تذكر زوجته وهى قابعة امام «طشت» الغسيل او تكنس الخوش واطفاله الثلاثة وهم يلعبون

فى التراب طول يومهم شبه عراه وقد تقرحت منهم الاجفان ..

ورحلته الى العاصمة الآن ليحاول ان يحرك اوراقه التى لا تريد ان تتحرك فقد قالوا له واعادوا القول ان ترقيته لن تكون مجزيه باثر رجعى ولن يزيد مرتبه فعلا الا من تاريخ التصديق النهائى .. كم كان يعد ويحسب ويعيد الحساب لتلك الفروقات التى كانت ستأتيه .. المفروض ان تكون ترقيته من سنتين وثلاثة شهور .. ومرتبه سيزيد خمسة جنيهات فى الشهر .. خمسة مضروبه فى اثنا عشره شهرا بستين جنيها وستين فى اثنين بمائة وعشرين وثلاثة فى خمسة بخمسة عشرة أى تكون جملة الفروقات مائة وخمسة وثلاثون جنيها كامله .

ما الذى لا يمكن ان يفعله هذا المبلغ الكبير ؟؟؟ أساور لزوجته طالما تمنتها . كساوى للاسرة .. ثوب غالى الثمن تخرج به زوجته وتتباهى به امام جاراتها ... ولكن ما الفائده فالترقية ستكون من أجل حفظ الاقدمية فقط .. وذهب هذا المبلغ الكبير الى غير رجعه ..

يا سبحان الله ... كم ثمن السياره التى يركبها حسين ؟؟ « والفيلا » ؟؟ وكيف يبدو مكتبه فى الشركة ؟؟ الديه مثله مشكلة مع الكتاحه والتراب .. ؟؟ وهز رأسه بعنف وجفف جبينه بسنديله قبل ان يعبر الشارع .

***

لم يكد سليم يخطو الخطوه الاولى فى بهو الفندق الفاخر حيث كان على ميعاد مع حسين حتى تسمر فى مكانه وكاد يقفل راجعا .. فقد بهره المكان وما فيه ومن فيه . وشعر وكأنه انتقل على كف عفريت من دنيا الى دنيا .. الى دنيا لم يعرفها ولم يألفها فكل شىء فى ذلك البهو مصقول لامع .. وغاص حذاؤه الذى نسى ان ينظفه ويلمعه فى بساط وردى كثيف .. وبالرغم من انه حمد الله انه جاء فى بدله كامله الا أنه شعر بخجل شديد لأنه لم يرسلها الى الكواء لازالة ما لحق بها من غضون « وكرمشه » .

وقرعت اذنه همهمة اختلطت فيها اصوات كثيرة تتكلم لغات لم يسمعها من قبل كادت تغطى على الموسيقى الحالمه التى راح جهاز ما يبثها من مكان ما .. وراحت الثريات البلوريه تهتز بهدوء ولطف وكأنها ترقص رقصة ساحره على تلك الانغام ...

وكان هناك اناس من كل لون وجنس لا يجمع بينهم سوى النظافه والاناقه المبالغ فيها ولم يكن بينهم قطعا من يبدو وكانه يكافح كفاح المستميت لزيادة مرتبه خمسة جنيهات .

كاد سليم ان يكر راجعا من حيث اتى لو لم ير حسين يتقدم نحوه مادا يده لمصافحته وقاده الى طاوله يجلس اليها (خواجا) هب على الفور لاستقبالهما .. وراع سليم طوله المفرط واناقته المفرطة ..

ولم ينتظر الخواجا ان يقدمه حسين بل انطلق يقول بانجليزية طليقه مادا يده مصافحا ...

ـ لابد انك مستر سليم .. فقد كان يحدثنى عنك حسين وقال انه ينتظرك ... وقال انكما صديقين منذ ايام الدراسة ..

ثم اشار له بالجلوس واستطرد ..

ـ ويمكنك من الان اعتبارى صديقا . فاصدقاء حسين هم اصدقائى .

وابتسم حسين وهو يضع يده على كتف سليم ويضغط عليه برفق وجلس وقال ...

ـ هذا هو مستر فليب مدير عام الشركة التى اعمل بها وبالمناسبه مستر فليب يتحدث كثيرا ويرفع الكلفه سريعا وخصوصا بعد كأس الوسكى الثالثة .

وضحك الخواجا بانطلاق وهو يرفع كأسه الى شفتيه .

ـ ولكن هذه هى الرابعه يا حسين والبقيه تأتى فلا زال الليل فى اوله ..

وبالرغم من ان مضيفاه حاولا جاهدين ان يتحدثا اليه بانطلاق ويشركاه فى الحديث ، فأن سليم كان كالابله فى الزفة ، يضحك حين يضحكون ويتظاهر بالانتباه حين يظن ان الموقف يستدعى منه

الانتباه .. ولكن شيئا فشيئا وجد عضلاته المشدوده تسترخى وبدأت رهبه المكان تخف مع الكاسات التى تجرعها .. فحاولا جره فى الحديث فقد قال الخواجا ..

ـ وكيف تجد التدريس يا مستر سليم ؟؟؟ وبالمناسبة ربما يهمك ان تعرف اننى بدأت حياتى بالتدريس ولكنى لم اوفق كثيرا فى حفظ النظام فى الفصل فنفدت بجلدى ..

ودبت الحياة فى سليم فقد حور الخواجا الحديث بذكاء الى شىء يعرفه سليم ويجيد التحدث فيه وكان لتأثير الخمر ايضا فعله . فانبرى يتحدث عن قدسيه المهنه والمميزات التى يجب ان يتحلى بها المعلم ودوره فى بناء الاجيال التى ستعتمد عليها البلاد .

وبدأ عليهما الاهتمام فاخذا ينصتان اليه بكل حواسهما .. او هكذا تخيل ... وكأنه ينطق بالآيات البينات .

وتدخل حسين مقتنصا فرصة صمت سليم ليرشف من كأسه ...

ـ هل حدثتك يا مستر فليب ان سليم يجيد الكتابة وكنت اتوقع ان يبرز فى هذا المجال ولكنه لسبب ما لم يفعل ..

وطفحت المراره بسليم وشعر بالقهر والانهزام وعاد اليه الشعور بالضاله والامتهان .. ولاحظ انه كان قد مد ساقيه الى اكثر مما يجب فعاد وسحبهما تحت مقعدة حتى لا يلاحظ احد حذآءه المتسخ .

وتظاهر الخواجا انه لم يلاحظ شيئا مع ان سليم شعر للمرة الاولى ان الخواجه لاحظ كل نبره من نبرات صوته وكل حركه مهما صغرت اتاها منذ جلس معهم ...

رمقه الخواجا بنظره من فوق نظارته وقال ...

ـ ولكن لماذا لم تحاول ان تكتب ولديك الوقت لذلك فى مثل مهنتك ..

وأجاب سليم بتلعثم ..

ـ لقد حاولت وحاولت كثيرا ولكن دون جدوى فلم تقبل اى صحيفه او مجله نشر ما اكتب

فضحك الخواجا عن اسنان بيضاء لامعه وقال

ـ هذا لا يعنى بالضروره ان انتاجك دون المستوى .. ولكن ربما لم تدخل البيوت من ابوابها ..

فقال سليم بيأس ..

ـ لقد طرقت كل الابواب ..

ـ قطعا ليس كلها والا لا تفتح لك واحد منها .. ولا تنسى ان لكل باب نوع خاص من الطرقات ..

ـ ولكن من اين لى تعلم هذه الطرقات ؟؟

فاجاب الخواجا بغموض وهو ينظر الى حسين بطرف خفى ..

ـ اعتمد فى ذلك على حسين فهو معلم كبير ولو انه لم يستعمل سبوره ولا طباشيرا طيلة حياته ..

وسرح سليم واخذ يجوب وديانا من الخيالات والاوهام متشابكة وتركهما يتحدثان عن شخص اسمه قوردون ..

قال حسين ....

ـ لم تبد لى رأيا فى مستر قوردن ..

فاجاب فليب بجديه لا تناسب عدد الكؤوس التى تجرعها ..

ـ انه لا لون له .

ـ اليس هذا هو المطلوب

ـ نعم ولكنه ايضا محدود الذكاء

ـ لا أوافقك فكل ما يحتاج اليه هو بعض التدريب .. ولاحظ أنه يمكن ان يندس بين الناس بسهوله ..

ـ هذه ميزة لا انكرها فى المستر قوردن ولكنه يحتاج الى مجهود كثير ..

فقال حسين ضاحكا ...

ـ اترك ذلك لى .. الم تقل انى استاذ جيد قبل لحظات ؟؟

فنظر فليب الى السقف مليا وكأنه يتأمل الزخارف التى زين بها وقال ببساطه .

ـ على كل حاول ان يكون المستر قوردن قريبا منا حتى نبت فى الامر ..

ثم التفت الى سليم وكانه كان قد نسى وجوده تماما وقال ..

ـ اوه .. مستر سليم لقد انشغلنا .. عنك ولكنها عادة سيئة فى حسين انه لا يمل الحديث عن العمل ومشاكله ..

ثم نظر الى ساعته ونهض فجأة وقد عاد المرح الى محياه ..

ـ يا الهى يجب أن أذهب فزوجتى امرأة شديدة واذا تأخرت عن العودة اكثر من هذا .... اوه ...

واتى بيده حركة مضحكة تدل على الضرب .. مما جعل سليم يقهقه بالضحك وهو ينهض ليتناول اليد الممدوده اليه مودعا الخواجا وهو يشكره .. واستبقاها الاخير فى يده وقال ...

ـ كانت سهرة ممتعة يا سليم ..

ثم التفت الى حسين واردف

ـ ويجب ان تتكرر .. ارجو ان تأتى انت وسليم الى منزلى ليلة السبب القادم للعشاء وارجو ان تعجبك الاصناف التى تطبخها زوجتى يامستر سليم ..

***

وتكررت اللقاءات .. وفتر حماس سليم افندى فى ملاحقة اوراقه .. بل انه كاد يتعود على هذه الحياة البراقة واكتشف ان الخواجا يزيد التصاقا به ويوليه اكثر اهتمامه ..

وذات ليلة ..

اعتذر فليب لمغادرته مجلسهم مبكرا ببعض الأعمال العاجلة .. وانفرد به حسين فى ركن فى بهو الفندق من اكبر فنادق العاصمة ..

وظهرت جدية غريبة على ملامح حسين الذى عهده دائما مرحا مستخفا بكل شىء وقال حسين ...

ـ الى متى ستظل مدرسا فى الاقاليم يا سليم ؟؟؟

قال سليم بدهشه ...

ـ ولماذا هذا السؤال ؟ ؟؟ فاجاب حسين

ـ ان مكانك هنا وهذه الحياة المرفهه هى ما تستحق .. ما قولك فى ان اجد لك وظيفة فى نفس الشركة التى اعمل بها .. بل الحقيقه انى فتحت الموضوع لمستر فليب فوافق على الفور ..

ـ ولكن ماذا اعمل فى الشركة وانا لا ادرى عن اعمال الشركات شيئا و . .

فقاطعه حسين ..

ـ ستتقاضى مرتبا يبلغ خمسة اضعاف مرتبك الحالى على الاقل .. ففغر سليم فاه لحظة وقال .

ـ ولكن كيف عرفت كم يبلغ مرتبى ؟؟ ؟

فاجاب حسين باقتضاب ..

ـ لقد سألت ..

ـ ولكن العاصمة متخمه بشباب هم اعلا تعليما منى وادرى بمثل هذه المناصب .

ـ ان لنا نظرة فى الناس لا تخيب ..

وأعتدل سليم فى مجلسه وقد ظهر الاهتمام على ملامحه وقال

ـ ونظرتكم هذه قالت لكم انى اصلح لهذه الوظيفه ؟؟؟

ـ نعم وبكل تأكيد

ـ ولكن ما طبيعة هذه الوظيفة ؟؟؟

فقال حسين بعد تردد قصير ..

ـ كل ما يمكن ان اقوله لك الآن انها وظيفة تحتاج لمقدرتك فى الكتابة وصبرك على القراءة .. الم اقل لك انها ستناسبك جدا ..

وفتح سليم فمه ليسأل ولكن حسين اشار له بالصمت واردف ..

ـ لا تقل شيئا الآن .. بل فكر فى الموضوع حتى غد ولنتقابل فى نفس هذا المكان مساء لنناقش الموضوع اكثر ..

واشار بيده يطلب مزيدا من الشراب ..

***

لم تكد عقارب الساعه تشير الى الثامنه مساء حتى كان سليم فى بهو الفندق يجلس فى الركن المعهـود فى انتظار حسـين وقلبه يخفق بالأمل والرجاء .. حقا سـيقفز مرتبـه الى خمسـة اضعاف مـرة واحدة ؟؟ هل ستملك يوما عربة كتلك التى عند حسين ؟؟ هـل قدر له اخيرا ان يفارق حياة الضنك والعوز ؟؟ اى حظ سعيد هذا .. واخذ يحسد الله من كل قلبة ان قابله حسين فى ذلك اليوم القائظ بل واخـذ يتسكر الباصات والطراحات الذين تركوه يقف فى انتظار مرير وهـو يدرى انه كان فى انتظار الحظ السعيد .

وجاء حسين اخيرا .. وسلم على سليم بوقـار غير معهـود منه وجلس . كم تلهف سليم الى ما سينطق به حسين وتعلقت عيناه بشفتيه ولكن حسـين لم يدخل فى الموضـوع مباشرة وانما اخذ يتكلـم فى مواضيع بعيدة كل البعد عما كان يريده سليم .

ـ ان حياتـك فى الاقاليم يا سليم ابعدتك كـل البعد عـن مركز الاحداث تلك الاحـداث التى نشعر بها ونتفاعـل معها نحـن هنا فى الخرطوم .. بل ويتأثر بها القطر كله .. فالدول الكبـرى فى صراع مستمر مستميت من أجل السيطرة على الدول النامية لانها مازالـت تمثل مصادر لا تنضب للمواد الخام كما انها تمثل اسـواقا فعليـة او متوقعه لمنتجات تلك الدول .. اما بالنسبة لبلدنا فانه فوق كـل ذلك له اهميتـه الاستراتيجية لربطـه بين دول الشرق الاسوط وافريقيـا لذلك فالصراع عليه يكون اشد . وهـذه الـدول الكبرى لذلـك مستعدة لان تدفع الكثير لتنال صداقتنا وتوطيد العلاقات الحسنة معنا لاسيما فى الحقلين الاقتصادى والتجارى ..

وجلس سليم ينصت متظاهرا بالاهتمام وهو لا يدرى العلاقة بين هذا الكلام المطول وما جاء من اجله ولكنه رغم لهفته لم يجـرؤ على مقاطعة صديقه الذى استمر يقـول ..

ـ ونحن كبلد نام لا يمكن ان نقف بمعزل عن هذا الصراع وكان لابد لنا ان نكون مع هذا الجانب او الجانب الآخر ..

وهنا وجد سليم شيئا يقوله فسأل ....

ـ وماذا عن سياسة عدم الانحياز والحياد ؟؟

فقال حســـــين ...

ـ انها سياسة خيالية وغير عملية .. وعلى كل فقد حددت جماعتنا موقفها الصديق من احدى الكتلتين والمعاد للكتلة الاخرى ..

وبدأ سليم يفهم فسأل ..

ـ ولكن ما موقفى انا من كل هذا ؟؟

فرد حســـــين ...

ـ تريدك ان تكون معنـــا

ـ وعملـــى فى الشركـــة ؟؟

ـ انهما شيء واحـــد

ـ كيـــف ؟؟

ـ كل ما نريده منك ان تكون معنا .

ـ لم افهـــم بعـــد ؟؟

ـ نحن فى حاجه الى رجل يجيد الكتابة وتدبيج المقالات عن دولـة معينة حتى تكون فى اذهان القراء دائما ويتناول فى مقالاته تاريخها .. وتضحياتها من اجل حرية الانسان .. غناها والمستوى المعيشى المرتفع لمواطنيها .. انتصاراتها فى مجال الفضاء .. معوناتها لنا .. وفى نفس الوقت يقلل من قيمة انتصارات دولة معينة اخرى .. وربما طلب منك ان تلخص بعض المقالات التى تنشرها الصحف المحلية وتكتب تقارير عن الحالة العامة فى البلاد مثلا .. هل الناس قانعون راضون ام هم ساخطون وما سبب هذا السخط .. وحالة السوق .. كما ترى فان هذا العمل من اسهل الامور وفى احيان كثيره ستأتيك المقالات جاهزة وليس عليك فى مثل هذه الحالات الا مراجعتها من ناحية اللغة وتمهيرها بامضائك ..

ـ ولكن لنفرض ان الصحف رفضت نشر ما اكتب .. ؟؟ ..

فرد حســـين بهدوء ..

ـ دع مشاكل النشر لنا فقد عملنا حساب كل شيء ولنا رجالنا فى كل مكان ..

ـ واستلم انا خمسة اضعاف مرتبى الحالى لمجرد ان اكون احد رجالكم ؟؟

ـ هذا هو عين الحق ..

ـ اى انى ساكون ممثلا لمصالح دولة معينة فى هذا البلد وعلى ان ادافع عن هذه المصالح بغض النظر عن الدوافع الحقيقية لتلك الدولة الدولة ..

ـ الى حدما هذا صحيح ..

ـ وما المستقبل فى هذا العمل ؟؟

ـ ستزيد مخصصاتك كلما زادت مسئولياتك وبرهنت على كفاءتك

ـ على كفاءتى فى خدمة تلك الدولة المعنية .. ؟؟

ـ انها منفعه متبادله ..

ونهض سليم فجاءة وقال وصوته يهتز من الانفعال .

ـ شكرا يا حسين على أى حال ولكنى افضل ان اخدم بلدى هذا ولو كمدرس مغمور فى احد الاقاليم .

وفتح حسين فمه بدهشة واراد ان يقول شيئا ولكن سليم كان قد خرج من الفندق واختفى فى الزحام ..

★★★

انتفضت البلاد فى ثورة شملت كل جزء فيها .. ولم يمض عام حتى امست كثيرا من الشركات .

وكان سليم يجلس فى انتظار شاى تعده زوجته ضحى يوم جمعة ويتصفح الجرائد اذا به يصيح بزوجته فى مرح وقد نسى اللغة العربية الفصحى على غير عادته .

ـ هاتى ياوليه الشاى بسرعة ولا كنتى حتجيبيه لى فى السجن ؟؟ ..

ولم تفهم زوجته ونظرت اليه فى بلاهه .

ـــ سجن شنو ؟؟ اعوز بالله .

بينما واصل هو يقـول ..

ـــ حســـين اعتقلوه ..

ولما لم تكن تعرف حسينا هذا فانها اكتفت بالابتسام فقد عهدت في زوجها غرابة الاطوار في بعض الاحيان منذ عاد اليها من الخرطوم .

★★★

الدنيا بخير

ـ ورنيش .. ورنيش .. امسح نضيف .

وبهزة لامباليه من يده صرف محمد افندى الصبى اللحوح واستسر فيما كان فيه من مراقبة الحياة والاحياء وهى تمر امامه من زاويته المفضله بالمقهى .. هذه الزاوية التى لم تتغير منذ خمس سنوات مضت ومنذ قنع محمد افندى بمجلس المتفرج السلبى من الحياة وتقوقع فى ذاته يجتر ماضيه المؤلم ولا يمل هذا الاجترار ..

ـ لا شىء يهم الان .. لاشىء

فلتسقط حكومات وتأتى حكومات .. فلتندلع ثورات وتخمد ثورات . كل هذه وتلك بعيدة كل البعد عن محمد افندى . وحتى تلك الأيام والليالى الرهيبة وحين انطلقت المدافع تهدر فى كل جهات المدينة وطرقعات الرصاص تصم الاذان وتضطرب لها القلوب لم يزد محمد افندى على ان هز كتفيه باستخفاف وهو يقول ..

ـ مجانين ..

ولم يضايقه من كل ذلك الا انه حرم من قعدته بالمقهى وانه لم يستطيع ان ينام لانه لم يشرب زجاجة الخمر التى تعود ان يشربها قبل أن يأوى الى فراشه ..

وامتدت يده بحركة تلقائية الى علبة سجائره واشعل السجارة الاخيرة قبل ان يلقى بالعلبة الفارغة على الارض ... ومر بذهنه اسم المرض الوبيل الذى يصيب بعض المدخنين كان يقرأ عنه أيام كان يقرأ « ولكن لماذا تمد فى حياتك يا محمد وتطيل ؟. وماهى قيمة هذه الحياة؟ وهل سيتغير نظام الكون ان اختفيت ؟؟ ومن سيتحسر عليك أو يبكيك ؟؟؟ لا احد .. حتى اقربائك فى القرية نسيتهم فنسوك .. ولا اصدقاء لك ولا معارف . حتى زملاءك فى المكتب عزلت نفسك عنهم

ولا تكاد تذكر اليوم الـذى تبادلت معهم كلمة واحدة الا ما يقتضيه العمل ... وحتى هذا ففى اضيق الحدود ...

ـ الساعه كم من فضلك ؟؟

وانتفض محمد افندى كمن يفيق من حلم رهيب ونظر الى الواقف امامه ببلادة مما جعل الاخير يكرر سؤاله ...

ـ الساعه كم من فضلك؟؟

ـ تسـعه

وانصرف الرجل بعد ان القى عليه نظرة ثم يهتم محمد افنـدى بتفسير معناهـا ...

« ماذا تريد من الساعة ومشيتك تدل على الفراغ والضياع . وما الفرق عندك او عندى ان كانت الساعه التاسعة او الثامنه أو كان اليوم سبتا أو خميسا .. انها ساعات تمر وايام تتوالى وكأنها يوم طويـل لانهاية له »

وتنهد بعمق واسى قبل ان ينهض بتثاقل .

قادته قدماه الى بائع الطعمية الذى ناوله لفته المعهودة دون ان ينبس بكلمة . فقد حاول فى الماضى ان يتبسط معه فى الحديث ولكن محمد افندى صده بصمته الرهيب ووجهة الصخرى فتعود ان يلف له طلبه الذى لا يتغير ويتناول منه نقـودة دون كلمة وكأنهما اثنان مـن الخرس البكم .. ثم انتقلت به قدماه الى بائع الخمور وصاح الخواجا حـيـن رآه ..

ـ ياولد جيب القزازة بتاع محمد افندى قوام .

ثم التفت اليه قائـلا ..

ـ القزازة دى مخصوص اشانك علشان انت بجبو بارد كثير

ولم يبد على محمد افندى انه سمع شيئا مما قال الخواجا بـل وقف كتمثال صخرى فى انتظار زجاجته ..

وخفض الخواجا صوته كمن يلقى بسر رهيب ..

ـ الماهيه الشهر دا يا محمد افندى هيكون بدرى كثير

ولكن محمد افندى كان قد تناول زجاجته وخرج لا يلوى وكأنه يهرب من الشيطان .

كلكم أولاد كلب .. مستغلين .. حرامية .. خونة .. لماذا لايعجلون بالحرب الهايدروجينيه والتى يقولون انها لن تبقى ولن تزر بل لماذا لا تقوم القيامة وتدمر الاخضر واليابس ؟ . الا تبا ولهؤلاء الناس .

***

لم يكن هذا حال محمد افندى دائما .. بل ان من كان يعرفه قبل خمس سنوات لو رآة اليوم لانكره وما صدق عينية .. كان محمد افندى تلك الايام شابا ككل الشباب يفتح للحياة كل صدره ويعيش حياته بالطول والعرض .. من يصدق ان هذا الرجل كان زوجا فى يوم من الايام ..

نعم كان محمد افندى زوجا لعائشة .. وكان له اصدقاء كثيرون ولكن اقربهم الى قلبه كان محمود .

محمود وعائشة ...

انهما سبب مصيبته وبلواه .. انهما سبب هذه الحياة المملة الرتيبه التى يحياها الآن .. لقد اصبح يرى فى كل رجل محمودا وفى كل امرأة عائشة .. وفقد ثقته فى الناس ، فى كل الناس واغلق صدره دونهم ..

انه يذكر ذلك اليوم وكيف ينساه .. يومها شعر وكأنه يقطع اطرافه وهو يطردهما معا من منزله ..

عائشة زوجته والتى تزوجها بعد سنين طويلة من الحب والامل والرجاء كم كان امله اذ ظنها سعيدة بذلك الزواج فقد كان هو سعيدا به الى ابعد حدود السعادة . كان ايامها يحلم بالاطفال ولا سيما بطفل يسميه محمودا على اسم صديقه . سينمو هذا الطفل ويترعرع وينبغ فى كل المراحل الدراسية ويتخرج دكتورا يملأ اسمه الاسماع (الدكتور محمود) ..

وسينجح فيما فشل فيه أبوه .

كم كان محمد افندى يتوق ان يكون له أبن يحقق آماله العراض اين تلك الآمال الآن . ؟ لقد تبخرت واندثرت ولن تعود ..

تمنى ان يكون طبيبا .. فشل ..

امله فى الصداقة المخلصة البريئة ..فشل ..

« اذن فلتشرب يا محمد افندى حتى يتخدر عقلك ويثقل لسانك وحتى يكون قومك اقرب الى الاغباء ..

« اشرب حتى تنسى الوجود بما فيه ومن فيه

اشرب فربما كان سر الحياة الاكبر ان تغيب عن هذه الحياة ..

نعم انتهى كل شىء بهدوء ظاهرى واختفى محمود من حياته ولا يدرى الآن ان كان حيا ام ميتا .. وعادت عائشة الى اهلها وقد علم اخيرا انها تزوجت وانجبت . .

اما هو فقنع من حياته بهذه الحجرة الكئيبة فى فندق من الدرجة الثالثة واستبدل صحبة الناس بصحبة سجارتة والكاس .

« محمود .. وعائشة .. الازلت تفكر فيهما ؟؟

اذن فلم تشرب بما فيه الكفاية .. اوف لهؤلاء الخواجات .. اصبحوا يغشون فى الشراب . كانت تكفيك زجاجة واحدة واذا بك تقهقه وانت تستعرض صورة شيخ القرية وهو يتطوح ذات اليمين وذات اليسار فى حلقه الذكر بقامتة القصيرة ولحيته الطويلة .

ـ الله ... اوه .... أوه ... الله

كان منظره فى عباءته الفضفاضه يذكرك دائما بخفاش يبغى الطيران ولايقوى عليه فتستحيل جهوده الى قفزات خائبة تثير الضحك

اضحك وقهقه يا محمد افندى ما شئت وانت تستعرض صور فتحى افندى زميلك فى المكتب والذى يأتى كل صباح وقد تأبط كل المجلات والجرائد التى تكون قد صدرت ذلك اليوم .. اضحك عليه وهو يضرب مكتبه بكلتا يديه ويصيح متحمساً ...

ـ لن تكون هناك ثورة صحية ولا ثورة تعليمية ولن تتحرر من الجوع أو العطش ان لم يسبق كل ذلك ثورة ثقافية شامله ...

وذات يوم قال له الباشكاتب بزهج ...

ـ ايه يا فتحى افندى .. انت حتغير الكون يا اخى ؟؟

واحمر وجه فتحى واذا به ينتفض واقفا ويقول بصوت اقرب الى الصراخ وهو يشير لكل منهم ..

ـ وليه لا ؟ . تعال معاى انت . وانت والعامل والمزارع والطالب وشوفوا ممكن نعمل أيه ؟؟ .. ؟؟

فرد الباشكاتب بمسكنه مفتعله ..

ـ لا .. لا .. سيبنى انا .. انا عاوز اربى عيالى ..

وانفجر المكتب كله بالضحك ..

★ ★ ★

ماذا جرى الليلة يا محمد افندى .. انك لم تسكر بعد .. رغم ان الزجاجة قد لفظت انفاسها الاخيره . انك لم تضحك بعد ولم تقهقه ولم تردد حيطان حجرتك صدى قهقهاتك الجوفاء . ولا زالت الأطياف المنغصه ترد على خاطرك . بل لا زالت تلك الصورة المحزنه منطبعه فى ذهنك ، صورة عائشة ومحمود وهما يخرجان من بيتك يطحنهما الخجل والخوف ..

لا يا محمد افندى .. لن تكفيك زجاجة واحده الليلة ... الساعة لم تتعد العاشرة بعد . ودكان الخوجا مفتوح وقد قال الخواجا نفسه « ان الماهية الشهر ده هيكون بدرى كثير » ولن يمانع فى اعطائك زجاجة اخرى أو نصف زجاجة على الاقل .. فهو لحرص عليك من ان يرفض لك طلبا .. »

ورفع محمد افندى الزجاجة ليفحصها مرة ثانية عله يكون قد تخيل انها فارغه وربما كان بقعرها بعض الشراب . ولكن الزجاجة كانت فارغة فعلا فرمى بها الى احد الاركان واسرع يخرج من غرفته .

ولم يكن قد ابتعد كثيرا عن الفندق .. وكان يحاول ان يعبر الشارع الكبير بخطوات مترنحه حين فوجىء بصوت نفير طويل وصرير عجلات سياره مسرعة وهى تحتك بعنف مع الاسفلت واختلط كل ذلك بصياح وزعيق الماره ثم اذا به يشعر بلكمه عنيفه وكأنها صادرة من قبضة عملاق اعماه الغضب .. ثم ذاب كل شىء فى صمت كصمت القبور .. واهتزت اعمدة النور بجنون قبل ان تنطفىء كلها مرة واحدة .. ولم يعد محمد افندى يدرى بشىء ولا يشعر بشىء فقد غاب عنه الوجود او غاب هو عن الوجود ..

حين افاق محمد افندى وجد نفسه طريح الفراش والم ممض ينتظم جسمه كله .. فتح عينيه واجالهما فيما حوله فاذا به فى عنبر مستشفى رصت فيه اسرة كثيره عن يمينه وعن يساره .. وجاءته اصوات كثيره مكتومه وكأنها تصدر من قاع سحيق وتبين ممرضا يقف بجانب رأسه ما ان رآه يفتح عينيه حتى صاح جزلا

ـ الحمد لله .. الزول فاق

واسرع يحمل اليه كوبا من الماء بينما اخذ رجلان يرفعان نصفه الاعلا ويضعان بعض الحشايا تحته حتى يتمكن من الشرب .. ولمح احدى ساقيه ملفوفه فى جبيره ثقيله من الجبس ومعلقه فى حبل تدلى من السقف ..

اراد ان يتكلم ولكن صدمه الالم العنيف سرت فى كل جسمه فلم يتمالك من اطلاق آهه عنيفه مزلزله ...

فاسرع الممرض يغرس فى جلده ابره خففت وبسرعة مزهله من آلامه ..

وجاءه صوت رجل ...

ـ سلامه كبيره يا ولدى

وصوت آخر ...

ـ انت من ناس وين ؟؟؟

ـ الزول اللى ضربه قبضوه ؟؟؟

ـ اهله ادوهم خبر ؟؟

واقترب منه رجل عجوز يتـوكأ على عكازين ولا يكاد يسنـد نفسه وجلس على حافة سريره وبعد ان اسند عكازه على الحائط وضع كفه المعروقه على جبينه وبصوت خافت يتفجر حنانا ..

ـ ان شاء الله بسيطه يا ولدى ..

وقبل ان يجيب محمـد افندى صاح به آخر فى الركـن المقابل بصوت مرح ضاحك

ـ كيفنك يا أخ .. والله كنت داير اجيك لكن شوف معلقنى كيف؟؟

ونظر محمد افندى فاذا بساقى ذلك الرجل معلقتان فلم يتمالك نفسه من الابتسام وسمع صوته يقول ...

ـ شكرا يا أخ ...

وتقاطر كل من يستطيـع ان يتحرك مـن نزلاء العنبر واحاطوا بسريره واختلطت اصواتهم .

ـ سـلامة كبيرة

ـ قالوا السواق كان سكران

ـ حاسس بحاجه تانيه غير كراعك ؟؟

ومد له احدهم يده السليمه بكوب من العصير ..

ـ خذ اشرب ده .. قوى نفسك

وقال آخر بلهجه مصريه سليمه رغم سواد بشرته ...

ـ ايوه اشرب .. انت حتكون مت من الجوع لغـاية ما يجيبولك اكل فى المستشفى دى .

وانفجر الجميع يضحكون ...

وصاح بهم الممرض متكلفا الحـزم ..

ـ ياللا يا خوانا كل واحد فى سريره خلو الزول يرتاح ..

ولكن محمد افندى هز رأسه ووجد صوته يقول ...

ـ خليهم انا مرتاح ...

وعاد العجوز ذو العكازين يسأله

ـ اهلك كلموهم ؟؟

وتلعثم محمد افندى وهو يقول ...

ـ انا اهلى .. مش هنا .

ـ انت ما مجـــوز

وقال محمد افندى بعد تردد قصير

ـ لا .. ولكن ناوى قريب ان شاء الله ..

فربت العجوز على كتفـه قائلا ...

ـ ولا يهمك كلنا هنا اهلك . اطمئن فالدنيا لسه بخير ... ووجد محمد افندى نفسه يردد بعمق واسى وندم ..

ـ صحيح الدنيا لســه بخير ..

ولدهشته وجد نفسه يتحدث ويفتح قلبه للمحيطـين به ويقص عليهم كيف حدثت الحادثه وكأنه يعرفهم جميعا منذ سنين وهـو الذى لم يتحدث أو يتبسط فى الحديث مع انسان منذ ... منذ

ووجد نفسه يهز يديه امامه وكأنه يحاول ان يزيح شبحيهما من خياله..

وفى يوم الزياره لم يكن يتوقع احدا ولكن ما ان اخـذ الزوار يتقاطرون حتى لمح الباشكاتب وهو يدفع امامـه كرشـه الضخـم . وبصعوبه بالغة تمالك محمد افندى نفسه من الضحك فقد كانت هذه أول مرة يرى فيها الباشكاتب بالجلابية والعمامة اللذين زاده قصرا وضخامه واندفع الباشكاتب بعد ان حياه الى صور الأشعه يرفعـها امام عينيه ويحملق فيها وهو يتكلم طول الوقت عن الكسر واين هو وكأنه لم يعمل طول حياته الا مجبرا للكسور

وتلا الباشكاتب احمد ، وسمير ، وفتحى ، حتى سعاد الكاتبـه جاءت تخطو فى استحياء وحيته بصوت خفيض كعادتها دائما

لم يتخلف احد من زملاء المكتب حتى عم عبـده الفراش جـاء وافترش الارض بجانب سريره وأخذ يواسيه

وانطلق محمد افندى يقص عليهم قصة الحادثه من جـديد ...

ليلتها نام محمد افندى دون ان يزوره طيف عائشه ولا محمود ..

ليلتها نام محمد افندى وقد تجدد حلمه بالزوجـه والابن الذى سيصبح دكتورا ...

عثمان أرم

لا يدرى احد اين ولد عثمان أرم ومتى ولا من اين جاء قريتهم الآمنة المطمئنه وهم لا يعرفون حتى أسم أبيه او قبيلته أو بلده فعندما سألوه عن اسمه حين وفد الى القريه اجاب باقتضاب .

ـ عمثان .

وسكت دون ان يذكر عثمان من .

وشعروا هم انه لا يريد ان يزيد وانه برم باسئلتهم فاكتفوا بان اسمه عثمان .

ولما كان في القرية اكثر من رجل يحملون هذا الاسم اضافوا الى اسم الغريب كلمة «أرم» أى الاسود فى لغتهم تمييزا له عنهم . ومنذ ذلك اليوم اصبح اسمه عثمان أرم .

ورضي هو عن هذا الاسم او على الاقل قنع به ولم يعترض عليه فقد كان فعلا ذا لون اسود داكن يلمع حين يعرق ويعكس اشعة الشمس وكأنه حذاء حديث التلميع . وله رأس ضخم مشعث الشعر ركب على جسم متين البنيان .

اما من أين جاء فكل ما يذكره الناس ان عثمان هذا كان يشق طريق القرية الرئيسى ذات صباح منذ عام مضى وكان يتجه شمالا . يحمل على أحد كتفيه عصا علق عليها صرة داكنة اللون كانت بيضاء يوما ما . وكان يتوكأ بيده الثانية على «فرار» مخيف الشكل وقدماه مفرطحتان مشققتان مما يدل على انه يستعملهما كثيرا وطويلا وانهما لم تعرفا لذة الحذاء ولا راحته منذ خلقهما الخالق .

وتصادف ان الحاج احمد كان فى تلك اللحظة بالذات فى طريقه من بيته الى شاطىء النيل وتدل ملامحه على انه يعانى من هم ثقيل يجثم على صدره ، فمياه النيل انحسرت كاشفة بذلك .. عن رقعة كبيرة من الجرف وكان عليه ان يزرعها ذلك الصباح قبل ان تجف . وهو يكره

هذا العمل بالذات اذ يحتم عليه ان يشمر ملابسه ويغوص فى الطين حتى ركبتيه . وهذا العمل بجانب انه مرهق للغاية ويجعل يديه ترتعشان لأيام فهو أيضا لا يناسب سنه ووقاره وهو رجل الدين الذى جاور فى الازهر ويحفظ الآيات البينات بلسان عربى فصيح ، فكيف برجال القرية ان رأوه كاشفا عن ساقيه وقد تلطختا بالطين ، حاول ان يؤجل هذا العمل الكريه ويقنع تلك الزوجه العنيد انه من الاصلح ان ينتظر بعض الوقت ولكنها رفعت صوتها فى وجهه وذكرته بما حدث فى العام الماضى حينما اخذ يؤجل ويؤجل حتى جفت الارض ولم تكف الرطوبه الباقيه لانبات حبوب اللوبيا وصاحت وهى تئهنه بالبكاء .

ـ جعلتنى اذهب لمن هم اقل منى لاستلف منهم علفا لعنزاتى .

وخرج الحاج احمد من البيت غاضبا ولكنه كان يعلم فى قرارة نفسه ان اليوم لن يمر على خير ان لم يقم بهذا العمل الثقيل . كانت هذه حاله حين وقعت عيناه على الغريب . فاخذ يتأمل طوله المفرط وساعديه المفتولين وتلك العضلات النافرة من صدر قميصه النابضه بالصحة والعافية . وتنهد بعمق حين تذكر شبابه ثم رفع صوته مناديا .

ـ يا أخينا ... يا أخينا

والتفت اليه الرجل وهو ماضى فى طريقه وغمغم وهو يشير الى صدره برأس الفرار .

ـ بتنادينى أنا ؟

ـ أيوه

وقف الرجل ولكنه لم يتحرك ليقترب من الحاج بل اخذ يتفحصه عن بعد بعينين حذرتين .

ـ داير شنو ؟

ـ انت عاوز تشتغل ؟

ـ أيوه

ولم يطل الحاج الحديث وقال وهو يشير له ان يتبعه .

ـ طيب تعال

***

وسار امامه والغريب يتبعه الى ان وصلا شاطىء النيل

حين هلت خديجه زوجة الحاج تحمل على رأسها فطور زوجها، هالها ان تجده متكئا على جزع نخله يدخن فى هدوء وراحة بال، وليس على رجليه او يديه او ملابسه اثر الطين . وفتحت فمها وكادت تتفجر بسيل من تلك الكلمات السريعة الجارحة لولا ان الحاج اسرع واشار باصبعه نحو عثمان . ورأت خديجه رأسا ضخما يعلو ويهبط بهمه ونشاط وذلك العمل الذى كان يستغرق منها وزوجها الايام الطوال يكاد ينتهى .

وكادت بسمة الرضا ترف على شفتيها الجافتين، لولا انها وأدتها بمهاره وسألت زوجها بحزم .

ـ كم ستعطيه ؟

ورد الحاج بعد أن رسم على شفتيه ابتسامه مترده

ـ عشرة قروش فقط .

وانزلت خديجه ما كانت تحمله من طعام ووضعته امام زوجها ثم نزلت الى الجرف تعاين ما تم من عمل واضعة يديها فى خاصرتها . وحين عادت قرأ الحاج على ملامحها علامات الرضا رغم انها حملت قفتها وذهبت دون ان تنطق بكلمة .

***

انتهى الرجلان من فطورهما دون ان يفتح عثمان فمه بكلمة وتناول الريال من الحاج ولفه باحكام فى طرف عمامته ونهض واقفا وهو يلتقط صرته وعصاه وغمغم بكلمات لم يفقهها الحاج ولكنه اعتبرها كلمات شكر فاخذ يردد :ـ

ـ استغفر الله استغفر الله .

وكاد عثمان يمضى فى طريقه المجهول كمئات غيره عبروا طريق القرية لو لم تظهر سكينه وهى تهرول نحوهما وقد تقطعت منها الانفاس .

ـ انتظر .. انتظر

توقف عثمان ينقل بصره بين الحاج والمرأة التى اخذت تتكلم مع الحاج بلهفه والكلمات تخرج من فمها بسرعة عجيبة رغم تهدج انفاسها وبلغة لم يفقه عثمان منها كلمة واحـدة . وعلى اثر كلمات مقتضبة من الحاج رأى عثمان المرأة تفك طرف طرحتها عن ريـال بايد مرتعشـه وتناوله للحاج . وابتسم الحاج وقال مخاطبا عثمان .

ـ يظهر انها قابلت زوجتى وعلمت منها بأمرك وهى تريدك ان تزرع لها جرفها .

وقال عثمان بصوت اجش

ـ واطاتها وين ؟

***

وجاء عبد الرحيم وعثمان ينقر آخر النقر فى ارض سكينه وتلاه حسين ليحجز عثمان لنفس العمل اذا ما اصبح صباح اليوم التالى .

وهكذا لم يتمكن عثمان مـن مغادرة القرية ذلك اليوم فقضى ليلته بمسجد القرية ولم يتمكن مـن مغادرتهـا فى اليوم التـالى ولا الاسبوع الذى تلاه . فما كان ينتهى من عمل الا ويدعى لعمل آخـر واشتهر بين اهل القريـة بانه لا يرفض عملا ايا كان نوعه ومهما كـان الجهد الذى يتطلبه .

وقال الشيخ ابراهيم فقيه القرية وأمامها .

ـ لهذا الرجل قوة خمس رجال

ورد عليه عبد الرحيم

ـ الحكمة ان يده خضراء مباركة فلا أصاب مرض زرعا قام بزراعته ولا جف ضرع قام بحلبه .

فتنحنح الشيخ قبل ان يميل على اذن عبد الرحيم ويقول هامسا بالرغم من ان احدا من الناس لم يكن قريبا .

ـ رأيته فى منامى امس يتصدر مجلسـا لاوليـاء الله الصالحـين يقتسمون الدرك وقد اصر عثمـان ان تكـون قريتنا تحـت اشرافه وحراسته .

ليتك رأيته وهو فى لباس اخضر فضفاض ينسدل حتى قدميه وعلى رأسه عمامة خضراء ذات هيبه ووقار . وليتك رأيت ذلك الوجه الاسود وقد استحال ابيضا يشع منه ضوء سماوى باهر . وكل الاولياء حوله منكسى الرؤوس يتحدثون بكلماته وتوجيهاته .

وتنحنح الشيخ مرة اخرى قبل ان يضيف .

ـ والله انى اظنه نبى الله الخضر متنكرا ـ كما ورد عنه ـ فى زى عابر سبيل فقير . الم تر الى هذه الخيرات والبركات التى حلت بقريتنا بقدومه ؟!

واستقر عثمان بالقرية .

وتنوعت الاعمال التى يقوم بها عن طيب خاطر فهو تاره يحمل على كتفيه القويتين زيرا من مكان الى مكان وتراه تاره اخرى يفتل الحبال او يحفر بئرا او يصلح ساقية معطوبه او يثبت سقفا امالته هوج الرياح .

وانتقل عثمان من مسجد القرية الى خص من القصب الجاف اقامه فى مكان بعيد عن منازل القريه قريبا من النيل . وكان مكانا لاتطأه قدم بعد مغيب الشمس وتخفيه من العيون اشجار النخيل الكثيفه اذا ما طلع النهار .

ومكانا تدور حوله وعما يدور فيه وعن ساكنيه قصص رهيبه مرعبه .

وبدأ الناس يتهامسون عن سر هذه العزله التى اختارها عثمان لنفسه ولماذا اختار هذا المكان بالذات فكثيرا ما سمعوا ومنذ طفولتهم عما يحدث فى هذا المكان اذا ما غطى الليل الكون بجناحيه السوداوين .

وسمعوا عن تلك الغمغمات والاصوات المبهمه الغامضه والتى يقال ان كل من يمر بالقرب منه لابد سامعها ، وتلك الحجارة التى كانت تنصب عليهم ولا يعلمون مصدرها ولا من يقذفها بل انهم يذكرون اسماء من دخلوا هذه التجربه الرهيبه وهم سود الرؤوس ليخرجوا منها وقد ابيضت منهم النواصى ، وما من معتوه او ابله أو

اخرس فى القرية والقرى المجاوره الا وربط الناس عاهته بهذا المكان فسكانه حين يغضبون لهم صفعات لا يحسها المرء ولكنها تخرسه الى الابد أو تؤدى به الى الجنـــون

حـاول الحاج احمد أن يقنع عثمان بالابتعاد عن هـذا المكان الملعون ولكن عثمـان هز رأسه الضخم رافضـا واصر عليه اصرارا عنيدا لا يتزعزع وكأن القصص التى راح يسردها الحاج على مسامعه لم تكن لتزيده الا اصرارا وعناداً .

ولم يزد الشيخ ابراهيم حين علم بالامر على هز رأسه شأن العالم ببواطـن الامـــور .

وقـــال بغمـوض .

ـ اتركوه وشأنه فهو ادرى بمافيه خيركم وخير قريتكم .

وفى صباح اول ليلة يقضيها عثمان فى خصـه خرج الناس مـن بيوتهم وهم فى لهفة وفضول ليعلموا ماذا حدث لعثمان وارتسم الزعر على ملامحهم وتساؤلات خرساء تجـوب اذهانهـم .

كيف عاقب الشياطين عثمـان ؟ باى طريقه قتلوه ؟ لابـد انهم سيجدوه جثه تتوسـط بركه من دمائه بعد ان مزقت جسده مخالب وحش خرافى ، وتوقع المتفائلون منهم ان تكون تلك الارواح الشريره قد اكتفت باذهاب عقله وسـيجدوه عاريا كما ولدته امـه يفر الى الصحـــراء .

وتنفس الجميع الصعداء وارتاحت اساريرهم حين رأوا رأسـه الضخم يعلو ويهبط وهو يعمل بهمه كعادته دائما فى احد الحقول .

واستمر عثمان يعمل من قبل ان تشرق الشمس ويظل يعمل طول النهار ثم ينزوى فى خصه المعزول عند المغيب . وتغيرت نظرة اهـل القرية اليه ، وبدأوا يعاملوه باحترام شديد ، واصبحت تعترى اصواتهم رعشة اذا ماتحدثوا اليه واصبحت اوامرهم اذا ماطلبوه الى عمل اقرب الى الرجـــاء .

وذات يوم ..

همست عائشة لجاراتها وهى ترتعد من الخوف وتتلفت حولها مردده دستور يا أسياد .. دستوريا أسياد .

ـ رأيته قبل المغيب بقليل يجلس على طرف الجرف مدليا قدميه فى الماء وهو يهمهم بكلام غريب ويأتى بيديه اشارات عنيفه وكانه يجادل مخلوقا لا اراه .

وقال عبد الرحيم للرجال فى مأتم خليل .

ـ كنت ابحث عنه لا كلفه بعمل فوجدته فى النيل يسبح كتمساح رهيب وظل يسبح ويسبح حتى وصل منتصف النيل ثم غطس . وانتظرت وانتظرت حتى مللت الانتظار ودخل قلبى ظن بان يكون قد غرق فجريت عائدا الى القرية احمل الخبر الحزين ولكن وفجأه أبصرته جالسا فى منتصف الطريق وكأنه كان ينتظرنى .

فمصمص الشيخ شفتيه وقال

ـ اهل الخطوه لا تهمهم المسافات .

وقالت الحاجه نبوية العجوز الضريرة لنساء تحلقن حولها بصوتها المبحوح .

ـ ان عثمان واقع فى عشق فتاة جميلة من عرائس البحر ولكن اباها وهو ملك من ملوك الجان الذين يعيشون فى ممالكهم تحت سطح النيل اعترض على ان تكون هناك علاقه بين بنته الجنيه وبين رجل من الانس ولابد ان عشيقته هى التى اشارت على عثمان باختيار هذه القرية وذلك المكان المنعزل ليلتقيا فيه فى مأمن من ابيها وبعيدا عن مملكته .

وتنهدت فتاة جميلة بعمق قبل ان تسأل .

ـ ولكن الا يخاف عثمان شر تلك الارواح الشريرة التى يجاورها الآن .

فابتسمت الحاجه عن فم بلا اسنان واجابت .

ـ لا بل انهم اصبحوا اصدقاء واصدقاء عشيقته الجميلة وعيونا لهما على اهل الفتاة فحتى تلك الارواح تعرف الحب الصادق حين تراه .

وصاح مرغنى وكان يقرأ كثيرا بالرجال يومـا .

ـ انكم خرافيون فليس هذا الرجل الا متشردا او هاربا من العدالة

ولكن الشيخ انتفض واقفا وهو يصرخ باعلا صوته .

ـ ثم اشار اليه بيد ترتعش من الانفعال .

ـ انك لا تحسن الا الشراب والغنـاء والرقص فى الافراح وقراءة كتب الكفرة والمارقين . اياك ان تتكلم عما ليس لك به علم .

وتردد ميرغنى فترة فقد كان الشيخ عمه قبل ان يقول .

ـ ولكنـه لا يصـــلى .

فجلس الشيخ عبد الرحيم وقد عاد اليه بعض الهدوء وقال .

ـ انه يصلى بطريقة لانفهمها نحن المخطئون .

ـ ولكن من أين جاء ؟ ولماذا يعيش وحده بعيـدا عن الناس فقال الشيخ وقد استعاد هدوءه .

ـ دعو الخلق للخالق ... دعوا الخلق للخالق .

وماتت بقرة ميرغنى بعد يومين اثنين فقط من هذه الحادثة فقال له الشيخ وهو يشد على يده مهنئا .

ـ عليك ان تحمد الله على ان العقاب على عثرات لسانك قد وقـع على مالك ولم يقع على شخصك او اهلك .

واضيفت بذلك كرامة جديدة الى كرامات عثمان ارم وصـمت أول وآخر المعترضين .

***

كان الرجال متحلقين حول فطورهم وعثمان أرم بينهم حين اهل عليهم العمدة راكبا حماره الابيض الفاره وقد تدلت فروة السرج حتى كادت تلامس الارض .

ـ السـلام علـيكم .

صاح الرجال فى صوت واحـد .

ـ وعليك السـلام يا حضرة العمدة . اتفضـل .

وترجل العمدة وجلس متربعا فى المكان الذى افسحوه له وتدلت كرشه حتى استقرت بين فخذيه ، وراح يشارك الرجال طعامهم ويشاركهم حديثهم . ولم يغب عن عثمان ارم تلك النظرات الحادة التى كان يرمقه بها العمدة من وقت لآخر ، ثم يواصل المضغ ويواصل الحديث . كما لم يغب عن العمده ان نظراتة الفاحصة كان لها تأثيرها ورد فعلها على عثمان فقد لاحظ قلقه من حدقتيه اللتين لم تستقرا على شىء معين منذ جلس مع الرجال وان يده الممتدة الى الصحاف قد اعترتها رجفه خفيفه لم تلحظها اعين بقية الرجال . ولكنه استمر حتى انتهوا جميعا من طعامهم .

وقام عثمان يعتذر للحاج احمد وكان يعمل عنده ذلك اليوم بانه لن يستطيع ان يواصل العمل لفتور السم به واذن له الحاج وتحرك عثمان مبتعدا كل ذلك والعمده ماضى فى حديثه مع الرجال وكأن الامر لا يعنيه .

وفجأة صاح العمدة بصوت كالرعد .

ـ انت يازول ماشى وين ؟

وكاد الحاج احمد يغص بالشاى الذى كان يرشفه . توقف بقية الرجال عما كانوا يفعلون او يقولون وكأنهم استحالوا الى تماثيل من الصخر وبدا بعضهم مزعورا وكأن السماء سترعد وتبرق ثم تمطر حجاره من سجيل . ونظر بعضهم الى بعض وقد أخذتهم الدهشه . فهاهو رجل من القرية يخاطب عثمان بخشونة وقسوة بل توقع البعض ان يهجم عثمان على العمده ويقضى عليه .

ولكن عثمان وقف واجاب بصوت مرتعش .

ـ ماشى ارتاح شوية و .....

وقاطعه العمده

ـ لا ... تعال هنا الاول

ولدهشه الرجال عاد العملاق الاسود بخطوات مترددة ، ورأس منكس حتى وقف قبالة العمده دون ان يرفع عينيه اليه .

وسأله العمده بثبات وقد امال رأسه واسندها على كتفه الايمن

ـ انت اسمك ايه ؟

ـ عثمان

ـ عثمان مين ؟

ـ عثمان خميس

ـ أنت من وين ؟

ـ من بلاد الله

ـ أى بلاد الله ؟

ـ كلها بلاد الله

وقال العمده وبسمة ساخرة تزف على شفتيه الغليظتين .

ـ ولكن كل بلاد الله لها اسماء فمن ايها انت ؟

وتلجلج عثمان ولم يحر جوابا ولكن العمدة انقذ من هذا الموقف العصيب اذ بدل لهجته وملامح وجهه واذا بها جميعاً تنطق بالاحترام والتقدير

ـ فعلا ياشيخ عثمان كلها بلاد الله انما اردت ان اراك واستوثق مما سمعت عنك .. اتفضل يا شيخ عثمان خذ راحتك .

وقام العمده ، وشكر الرجال على كرمهم واعتلى ظهر مطيته وذهب . وعاد عثمان الى عمله وقد نسى أنه قال أنه مرهق وأنه فى حاجة الى الراحة وتنفس الباقون الصعداء .

قال الحاج أحمد عن العمدة

ـ هذا الرجل كثير الشك فى الناس حتى أنه يشك فى ظله .

وقال الشيخ ابراهيم مطيبا خاطر عثمان .

ـ ارجو ان لا يكون كلامه قد اغضبك فان هذه هى طريقته فى الكلام حتى معنا .

واستمر الرجال يتحدثون عن العمدة وطباعه الشرسة ولم ينسوا ان يذكروا انه ورث هذا الظن السيء بالناس من ابيه والذى كان يجلد المتهم قبل ان يسأله عن جرمه .

ولكن عثمان ظل يعمل صامتا لا يتكلم .

ظن الرجال ان الامور قد عادت الى مجاريها بين عثمان والعمده وان الاخير قد تراجع عن اسلوبه فى معاملة عثمان وانه آمن معهم ان الرجل فيه شيء لله ... ولكن سرعان ما خاب ظنهم وسرعان ما برهن لهم العمدة انهم لايعرفونه على حقيقته بالرغم من طول معاشرتهم اياه ، وانه لا يستسلم بسهوله . وانه يوم اظهر جانب اللين نحوعثمان لم يكن سوى ممثل بارع يدبر لمكيدة هزت القرية لعدة أيام وامتد تأثيرها وتغلغل الى نفوسهم .

فلم يكن قد مضى اكثر من اسبوع على اللقاء المشهود بين العمده وعثمان وكان الرجال يختمون صلاة العصر بالتسبيح والدعاء بكل خير للمسلمين كافة وسلاطين المسلمين خاصة ويستنزلون اللعنات على اعدائهم وقد اسبلوا جفونهم خشوعا لله وخشية منه ، انتزعتهم وبقسوة مما كانوا فيه من خدر لذيذ ضوضاء وجلبة وهدير مزعج لعربة حكومية توقفت فجأة على بعد خطوات منهم مثيرة زوبعة من الغبار كادت تعميهم . وقفز منها رجال بوليس مسلحين احاطوا بهم من كل جانب شاهرين اسلحتهم .

ثم فتح بابها ليخرج منه العمدة وقد احمر وجهه من الانفعال واندفع نحو الرجال وهو يصيح .

ـ اين عثمان ؟ اين عثمان ؟

وتجمد الرجال فى قعدتهم وقد اخذتهم المفاجأة فاغرى افواههم من الدهشة والخوف وكان أول من سيطر على اعصابه الحاج احمد فقال بصوت مرتعش مجيبا العمده .

ـ انه هنا . ولكن ماذا حدث ؟

وأفاق الرجال من الصدمة فاخذوا يتلفتون يمنة ويسرة وكأنهم لعب ميكانيكية تبحث عيونهم عن عثمان .

ولكنه لم يكن هناك .

كان قد انسل من بينهم فى هدوء القط واختفى دون ان يشعروا

به واغلب الظن انه لمح العربة عن بعد بينما كانوا فى عالم الروحانيات يهيمون .

واسرع العمده متدحرجا وخلفه رجال البوليس ورجال القرية نحو الخص ولكن عثمان لم يكن هناك ايضا .

وجاء دور قصاص الاثر الذى اخذ يتفحص الارض بعينين مدربتين ويدور حول الخص ثم توقف بغتة رافعا يديه علامة انه قد التقط الاثر وراح يتبعه وخلفه رجال البوليس شاهرين اسلحتهم يتلفتون حولهم فى حذر بالغ وكأنهم على وشك الالتقاء بعدو كامل العدد والعدة .

ووصل بهم القصاص الى شاطىء النيل ووقف وقلب كفيه فى حيرة . ان الاثر يدل على ان المطارد قد دخل الماء .

وقال صوت خشن .

ـ ربما اغرق نفسه ليريح ويستريح .

واجاب آخر .

ـ انه يسبح كالتمساح ولا يغرق ابدا من يجيد السباحة .

وارتفعت الاصوات من هنا وهناك واختلطت محاولة حل اللغز .

ـ دخل الماء للتمويه وسبح مسافة ثم خرج فى مكان آخر وواصل الهروب .

ـ لا بل سبح الى الشاطىء الآخر واضعا النيل بيننا وبينه وربما يكون الآن يجوب الصحراء او مختفيا بين التلال .

ـ ربما تسلق نخلة وهو الان ينظر الينا بسخرية من اعلاها

وهنا سكتت كل الاصوات وغزا القلوب خوف رهيب وارتفعت كل العيون مرة واحدة الى رؤوس النخيل تنظر وتدقق النظر وتمشطها واحدة واحدة .. ولكن ايضا دون جدوى ..

وانتشر رجال البوليس هنا وهناك يركضون فى هذا الاتجاه ثم يعودون ليركضوا فى الاتجاه المضاد .

ولكن لا .. لم يكن عثمان فى اى مكان

وجلس الرجال ليلتقطوا انفاسهم بعد هذا المجهود الجسدى والنفسى وسأل الحاج احمد العمدة وهو يلهث .

ـ ولماذا تبحثون عن عثمان ؟

واجاب العمدة بعد ان زفر فى تأفف شأن من انتزع منه النصر بعد ان كان وشيكا .

ـ كان ماتوقعته واذا بعثمان هذا ليس وليا من أولياء الله الصالحين كما يدعى الشيخ ابراهيم وانما هو قاتل قتل زوجته وفر من بلده ولجأ الى هذه القرية الامنه وكانت قوات الامن تبحث عنه فى كل مكان وارسلت صورته لكل المراكز ولما عرضت على الصورة عرفته على الفور رغم انه كان فيها حليقا وليس كث اللحيه كما عرفناه . واتيت بالبوليس للقبض عليه قبل ان يلحق بقريتنا ضررا ..

غربت الشمس .

واضطر رجال البوليس للتوقف عن البحث وعادوا الى دار العمدة ليقضوا فيها ليلتهم ويعاودوا البحث اذا ما اصبح الصباح .

وظلوا على هذه الحالة خمسة أيام يجوبون طرقات القرية وانقرى المجاورة بل وبحثوا عن المجرم فى الشاطىء الغربى وبين كثبان الرمال ولكن لا فائدة ـ لم يكن هناك اثر لعثمان . واخيرا عادوا من حيث اتوا حين اعيتهم الحيلة ولكنهم تركوا القرية تعيش فترة من الرعب والقلق الممض . فهناك قاتل قريب منهم ولا يعلم احد اين هو ولا متى يضرب ضربته الثانية . وتعلموا ان يغلقوا ابوابهم باحكام قبل ان يناموا وتعلموا ان تكون اسلحتهم من هراوات ضخمة ذات مسامير رشقت بها وسكاكين رهيبة فى متناول ايديهم دائما .

وتعلموا ان يسيروا جماعات وليس افرادا ، واكتشفوا ان للكلاب فوائد جمة رغم انها حيوانات نجسه يكفى مرورها بجانب احدهم لنقض وضوئه .

ومرت الشهور ولم يظهر اثر لعثمان وارتخت اعصابهم

المشدودة واطمأنت تدريجيا قلوبهم واخذت الحياة تعود الى ما كانت عليه .

وقال البعض :

ان عثمان حتى ولو كان قاتلا فهو ليس معتوها او مخبولا وهو لا يقتل حبا فى القتل وربما كانت الظروف هى التى دفعته لقتل زوجته

وقال مضحك القرية

ـ كنا نعلم ان عثمان يجيد كل الاعمال ولو عرفنا انه ايضا قاتل جيد للزوجات لكسب اضعاف ما كان يكسب .

وقهقه الرجـــال .

وكان فى القرية جماعة لم تصدق ابدا ان يكون عثمان ذا اليد الخضراء قاتلا وانما هى تهمة الصقها العمدة به ليتخلص منه وهو معروف بشكه وظنونه فى الغرباء .

وقال الشيخ ابراهيم حين ورد ذكر عثمان فى احاديث الرجـــال وذلك بعد ما يقرب من خمس سنين على اختفائه .

ـ لاتحكموا على الناس بالظواهر فلله حكمه فى كل الامور ربما غابت عن اذهاننا وعقولنا القاصرة .

ورد آخـــر

ـ ربما كانت زوجة فاسقة امرته قوى لا قبل له بها بقتلها .

وقـــال ثـــالث .

ـ اغلب الظن انها اطلعت على اسرار ما كان ينبغى ان تطلـع عليها فهناك اسرار للخاصة وهناك اسرار لخاصـــة الخاصة ومن يطلـع عليها غيرهم تنتهى حياته بطريقة غامضة قبل ان يفتح فمه .

اما نبويه الضريرة فقالت للنساء .

ـ لم يختف عثمان او يهرب خوفا من عقاب الحكومة بل ان ملك الجن قد رضى عنه اخيرا ووافق على تزويجه من ابنته وهو اى عثمان يعيش الآن فى أحد القصور التى وهبها له صهره فى مكان ما تحت سطح النيل وينعم بزوجه وبنيه وبناته الذين انجبهم منها .

وردا على سؤال احدى النساء عن هيئة هؤلاء الاطفال قالت هامسة

ـ نصفهم الاعلا أنسى والأسفل جنى

وموت ايام اخرى وشهور واعـوام ونسى الناس عثمان نسـوا حسناته ونسوا سيئاته ، نسوا ما كانوا يعتقدون فيه من كرامات ونسوا الرعب الذى عاشوا فيه عندما اكتشفوا انه ربما يكون قاتلا خطرا . نسـوا عثمان وكل ما يتعلق بعثمان .

ولكن عثمان ارم ظهر فجأة واصبح حديث الناس فى مجالسهم مرة اخـرى .

ظهر عثمان فى احلام الشيخ ابراهيم وكان الاخير يعيش آخر ايامه بعد ان وهنت قوته وضعف بصره وتساقطت اسنانه . ظهر فى احـلام الشيخ ابراهيم الذى كان يودع الحياة الدنيا بارضها ونخيلها ويستعد للدار الاخرة بكثرة الركوع والسجود وقضاء اكثر الليل فى التسبيح والتهليـل .

اشرقت الشمس ذات صباح واذا بالشيخ ابراهيم يرسل غلمانا ليدعوا كل رجال القرية اليه لانه يريدهم جميعهم لامر فى غاية الاهمية وجاء الرجال فاذا بهذا الرجل الذى افعدته الشيخوخة ينهنه بالبكـاء وقد اعتمد رأسه بين كفيه وانهمر الدمع من عينية الكليلتين حتى ابتلت لحيته وقال بين الشهقات ..

ـ هل اكتمل عددكم ؟

فأجابوا بنعم وهم ينظرون لبعضهم البعض فى تساؤل وحيرة .

فقال الشيخ بعد ان تنهد بعمق ودون مقدمات .

ـ ان عثمان ارم يقرئكم السلام

وشهق من كان كبير السن من الجلوس وكأن الشيخ قد القـى بهم فجاة فى مياة النيل فى يوم اشتد زمهريرة اما الشباب فقد تلفتـوا يتساءلون عن هذا العثمان واستمر الشيخ فى حديثه .

ـ جاء فى منامى من يدعونى الى مجلس الاولياء فذهبت وجلا خائفا اذ انهم لم يدعونى الى مجلسهم منذ امـد بعيد واذا بعثمـان يجلس

بمكان الصدارة منهم كما رأيته اول مرة واذا به يهب واقفا ويحتضنني ويقبلني من هنا وهنـــا .

واشار بيده الى وجنتيه قبل ان يستأنف

ـ وقد حملني السلام اليكم فردا فردا ولم يبد عليه انه غاضب من أحد فعلمت ان قلبه الطاهر قد غفر لكم جميعا ظلمكم اياه ـ قال لي ان القرية لازالت وستستمر الى ما شاء الله في دركه وانه سيظلها ببركته وحمايته ثم اشار باصبع من نور حيث كان خصه وقال « هنا يكـون ضريحـي »

ثم اضاف الشيخ ابراهيم وقد عاد الى البكـاء .

ـ اريد ان ارى ضريحه حيث اراد قبل ان الحق به في الدار الآخره

وهب الرجال وقوفا وهم يهللون ويكبرون وحملوا الشـيخ الى حيث كان الخص واجلسوه في ظل نخلة بينما راحوا يخططون الضريح

ولم تمض ايام حتى كان الضريح قد اقيم .

ولم تمض شهور حتى كان الضريح قبه فخمة يراها الناس مـن بعد بعيـد .

يترجل عندها الراكبون ليقرأوا الفاتحة بخشوع .

تنحر على ارضها النذور .

وتتبرك بحفنة من ترابها النسـاء .

★★★

سراب

يا للذكريات ..

ولماذا تنهال على الآن فى وقت ضاع فيه كل شىء .. ولم يبق من العمر الا القليل .. بل ربما لم تبق منه سوى لحظات ويطرق ملاك الموت بابى ليطوى تلك الحياة التى مرت وكأنها ساعات بل دقائق وثوانى ..

أكل هذا تسببه زيارة قصيرة من صديق .. صديق كان لى بمثابة الشقيق . ولكنى اضعته ، وافترقت بنا السبل منذ خمسة وعشرين سنة او تزيد . كنا انا وسمير أصدقاء وزملاء فى كل المراحل الدراسية وكنا لا نفترق رغم اننا كنا على طرفى نقيض فابوه كان مهندسا وأبى كان عاملا يكافح من اجل القوت . وكان هو يرى ان قيمة الانسان فيما يقدمه لاهله وبلده وكنت أرى ان قيمة الانسان فيما يملك من مال فى البنوك وعقارات . كان يحلم بالبيت السعيد والزوجه والاطفال وكنت احلم بالسيارة الفارهه والقصر المنيف .. وبالرغم من كل ذلك كنا اصدقاء وكان المناقشات العنيفة والتى كانت تدور بيننا مرات كل يوم لم تزدنا الا صداقة فوق صداقه وودا فوق ود . ولكن اين منا تلك الايام الآن وماذا يجدى الاسف والندم ؟! اليس هذا هو الطريق الذى اخترته لنفسى بعناد واصرار ؟ . وأين ذلك العناد والاصرار الآن ؟! .. ها .. لم يبق منهما شى وبقيت الوحده المريره والضياع ..

لقد كنت دائما ترغب عن الطريق المطروق وتحاول ان تجد طريقا لم يطرقه احد أو على الاقل طارقوه قليلون .. فاذا ذاكر زملاؤك فى مجموعات اغلقت انت على نفسك باب حجرتك وذاكرت بمفردك .. واذا قرأوا المذكرات واعادوا قراءتها مرات ومرات ابتسمت انت فى سخرية من هذا المجهود الضائع ورحت تجاوب على الاسئلة القديمة والتى ظهرت فى امتحانات سابقة .. وكنت تنجح بل وبامتياز .. وربما

كانت آفة حياتك هذا النجاح وهذا الامتياز لانك لم تستهدف ان تنفع بهما احداً غير نفسك كانا وسيلتين لخدمة نفسك وذاتك والوصول الى اهدافك الانانية .

كان الجميع واولهم صديقك سمير يلعنون هتلر ويلقبونه باكبر مجرم فى تاريخ الانسانيه .. الا انت .. كنت تعجب بهذا الرجل لانه فى نظرك كان قويا يعبد القوة ويدوس باقدامه الغليظة على الضعف والضعفاء .

وعنترة بن شداد كم اعجبت به ورددت قصائده ، فقد كنت تراه رجلا آمن بسيفه فأناله سيفه ما أراد ..

الم يكن من شعاراتك التى تؤمن بها ان الضعيف الذى لا يطيق ان يشق طريقه ولو على اكوام الجثث لا يستحق ان يعيش ولايستحق الرحمه او الشفقه ؟؟

اما تلك الافكار والعواطف والتى تعارف الناس على تسميتها بالحب او التضحية أو المبادىء الساميه والالتزام نحو هذه المبادىء،فلم تكن تعترف بها .. كانت كلها فى نظرك اقصى حدود الضعف وخداع النفس .

ولكن كان لك يا محمد معبود لا تعترف بسواه .. هذا المعبود هو المال . المال والمال فقط وكل ما يعوقك للوصول اليه من تقاليد او عرف فلا يستحق الا الركل بالاقدام ...

اتذكر ذلك اليوم ...

يوم اخذ منك الحماس كل مأخذ عقب مناقشة حامية مع بعض الزملاء فانتفضت واقفا وأخرجت قرشا من جيبك ، ربما كان الوحيد لديك آنذاك ، واخذت تصيح فيهم وانت تعرضه عليهم بيد تهتز من الانفعال .

ـ اترون هذا القرش ... به تستطيع ان تقتنى كل شىء وأى شىء ... ومن أجله تندلع الحروب ويموت عشرات الالوف فى الصحراء القاحله ..
وقاطعك احـد الزملاء ...
ـ والصحـــة ؟؟؟
وأبتسمت ساخرا وانت تقـول ...
ـ حتى الصحة .. حين تملك القرش فاعظم نطاسى العـالم رهـن اشارتك . اما من لا يملكه فمصيره الموت اهمالا على سرير مستشفى من الدرجة الثالثة ..
وقال سمير بصوت مرتعش
ـ والحـــب ؟؟؟
وجلست على كرسيك وانت تلوح بيديك فى استخفاف ...
ـ أرنى المرأة أى امرأة لا تبيع نفسها من أجـل بريق الذهب أو لآلأة الجواهر ؟ أين تلك المرأة الآتى لا تبيع حـياتها لتعيش فى القصر الفخم وتنتقل بالعربة الفارهة ؟
ورد سمير باصرار .
ـ أنها تكون بذلك تهبك جسدا ميتا لا قلب فيه ولا روح ..
وجاء صوتك هـادرا ..
ـ أرنى بنكا واحدا يتعامل فى القلوب والارواح
وضحك الزمـلاء ...
وليتهم صفعـوك ...

***

اليس من الغريب ان يصدر مثل هذا التفكير ممن نشأ فى القاع ؟؟ القاع المطحون المغلوب على أمره ... فالأب عامل فى أحدى الورش لا يكاد مرتبه يكفيه خبزا لاطفاله السبعه وزوجته ناهيك عن اللحوم والكســـاوى
أن قدميك يا محمود لم تتذوقا راحـة الحـذاء الا حـين بلغت المرحله الوسطى . وأيامها كنت تسير بحذر بالغ ولا «تشوط» الحجاره

خوفا على حذائك الثمين ... وأن حدثت مشاجرة ، وما كان أكثر المشاجرات تلك الايام ، لم يكن همك فى جلدك الذى ربما مزقته العصى او الحجارة ولكن كان همك فى جلابيتك التى ربما اصابها مكروه . فتسرع بخلعها وتعليقها على احدى الأشجار ثم تواصل العراك ... يا لسخرية الاقدار ... كان الزملاء يظنون ذلك شراسة منك وانك لا تريد شيئا يعوقك عن الكر والفر ولم يدر بخلدهم انها جلابيتك الوحيدة ... وان جروح الجلد تندمل وتبرأ ولكن جروح الجلابيه حتى لو خيطت تظهر للعيان ...

★★★

وأنتقلت من مرحلة دراسية الى أخرى قاطعا طريقك باظافرك واسنانك ، مقاوما كل اغراء بوظيفة صغيره تضعك فى نفس الطريق الذى يقطعه أبوك .

واخيرا تخرجت .. ومن الكلية التى اخترتها ، كلية الهندسة المعمارية ... اخترتها لا لأنك تميل لمثل هذه الدراسة ولكن لانها كانت من الكليات القلائل التى لا تربطك بالوظيفة وتفتح امامك آفاقا اوسع ..

وكان امامك طريقين .. الطريق المطروق المضمون والذى سار فيه بقية زملاؤك ومنهم سمير ... طريق الوظيفة والعلاوات والترقيات ثم زواج واطفال يشبون ثم معاش ونهايه ... أما الطريق الآخر فطريق صعب غير مأمون العاقبة .. واخترت الطريق الثانى ...

والقيت بنفسك فى الخضم المتلاطم .. ورحلت عن بلدك الى بلد بترولى غنى حيث الفرصه متاحة للمغامرين .. ودخلت المعترك الكبير حيث لا مكان للضعفاء .. أو المترددين ... دخلت المعترك وأنت لا تملك من متطلباته سوى شهادتك وشبابك وعزيمة صخرية لا تلين .. وتخليت عما كان قد بقى لك من عواطف وعلاقات انسانية لانها كانت بالنسبة لك معوقات وأنت لا تريد أى معوقات ..

وصلتك برقية بوفاة والدتك .. كان عليك ان تتوقف قليلا .. وان تعود الى بلدك ولو لمدة أسبوع واحد على الاقل لتقبل العزاء .. ولكنك لم تفعل .. بل امسكت بالقلم وجعلت تحسب .. كم ستخسر من اجل هذه الرحلة ؟ .. وهل سيستغل منافسوك فرصة غيابك فتضيع عليك صفقات كانت ستدر عليك الالوف ؟ .. ثم ماذا ستفعل اذا ذهبت ؟؟ انك لن تعيدها الى الحياة .. وماذا يجدى أن يبكى على كتفك الوالد والأشقاء والأعمام والاخوال .

ولم تسافر .. ارسلت برقية بحواله نظير مصاريف المأتم وطلبت للجميع الصبر والسلوان .

ويتكرر نفس الشيء وبعد خمس سنوات بالنسبة لأبيك .. ولم تفكر هذه المرة .. كان وقتك اثمن من ان يضيع فى التفكير .. وبطريقة آلية ضغت على الجرس تطلب فراش المكتب .. حواله تلغرافيه اخرى ولم تنس ان تطلب من الله للجميع الصبر والسلوان ...

ولكن لم يمضى يومان حتى اعيد لك المبلغ فقد رفض اشقاؤك استلام ما أرسلته اليهم .. كم دهشت يومها واخذت تسائل نفسك..

ـ الا زال على هذه الأرض أناس يرفضون مثل هذا المبلغ المحترم ؟؟

وهززت كتفيك باستخفاف .. ثم رفعت سماعة التلفون تمهد لصفقة جديده ...

★★★

ودارت بك الدوامة من جديد .. دوامة طحنت عمرك وطحنت صحتك ولكنك لم تهتم .. كان كل الذى يهمك رصيدك فى البنوك ولم تكن تعترف بيوم تعيشه الا اذا اضاف شيئا جديدا الى ذلك الرصيد ...

ومرت الايام والشهور والسنين .. كم من السنين ؟؟؟ وماذا بهم .. فقد اصبحت علما من أعلام المال .. وتحدثت الصحف عن صولاتك وجولاتك فى دنيا المال والاعمال .. اصبحت مرموقا ومحسودا من الكثيرين ...

وتدور الدوامه ولم تتوقف للحظة واحدة .. ماذا كنت تريد ؟ هل كنت تريد ان تبرهن للجميع ان الطريق الذى سلكتـه هو الطريق الصحيح ؟؟ وانك تستطيع ان تشترى كل شىء بالمال ؟؟ وانه لا قيـمة لشىء آخر ..

واندفعت ... اندفعت بجنون ودون هوادة وجمعت من المـال الكثير والكثير جدا ، وبكل الطرق . ولم تكن تتردد فى تحطيم كل من يقف فى سبيلك ، حتى خافك رجال الاعمال وتجنبوك .. كم استقبلوك يا محمود بالترحاب والابتسام وانت تعلم انهم يلعنـوك فى سريرتهم ويتمنون لو كانت ايديهم الممدودة اليك حرابا مسمومة وسـهاما .. ولم تهتم .. بل اندفعت فى طريقك لا تريم .

وفجأة اضىء امامك النور الاحمر ...

وأخذ يصرخ فيك قف ... قف ... قف ...

وأخذت انت بالمفاجأه .. واظلمت الدنيا امام عينيك . وتهاوت السماء قطعا من حولك ولم تصدق فى بادىء الامر ...

وذهبت الى طبيب ثانى وثالث ورابع ولكن النور الاحمر اللعين ظل مضاء بل ازداد وضوحا ..

وهز كل الاطباء رءوسهم ..

ـ لا فائده .. يجب ان تتوقف . يجب ان تستريح .. لا تبذل أى مجهود .. نم فى اليوم ثمان ساعات على الاقل .. انه قلبك بدأيضعف ، ويصيبه الوهن .... لم يكن ذلك الاغماء ، اغماء ناتجا عـن الاجهاد بل كان ذبحه صدرية .. وستتكرر وربما بصورة أشد ..

ـ الامل ضعيف ولكننا سنبذل كل ما نستطيع ..

وسافرت يا محمود وأخذت تنتقل من بلد الى آخر وحشمايكون اخصائى قلب مشهور او نصف مشهور .. ولكن النتيجـة واحـدة والكلمات مكررة ..

ـ يمكن ان تعيش لسنوات اذا توقفت .. وابتعدت عن الصدمات العاطفيـه .

وعدت الى بلدك فقد ذكرك اليأس المرير ان لك بلدا لم تره منذ خمس وعشرين سنه حتى نسيته . بلدك الذى اصبحت تتمنى ان تجد فيه من لا يزال يذكر محمودا الاخ اومحمودا القريب اومحموداً الصديق

عدت الى بلدك ومعك من المال الكثير واقتنيت هذا القصر وهذا الاثاث . لا يا محمود ان هذا ليس قصرا بل قبر كبير تعيش فيه حتى يحتويك القبر الصغير . وخاب املك يا محمود فلم يطرق باب قصرك احد .. ولم يتذكرك احد .. بل اهملك الجميع وتناسوك .

حتى كان هذا الصباح .. وطرق الباب طارق قالوا لك انه يدعى سمير ... ودخل سمير ...

يا لله كم غيرتك الايام يا سمير .. لقد تقوس ظهرك ولم تعد تطيق السير دون ان تتوكأ على عصاك .. وجف جسمك فاصبحت وكأنك هيكل عظمى يتحرك . ولكن مرحك وصفاء نفسك وضحكتك المجلجله لم يتغير فيها شيء .

احتضنتنى مرحبا ومعتذرا بسفرك فى احد الاقاليم عن هذا اللقاء الذى تأخر . واخذت تعبر لى عن اشواقك وكأننا عدنا لتونا الى الكلية بعد الاجازة الصيفيه .. وكأننا يا سمير لم نفترق خمسة وعشرين سنة ، ولم تفعل بنا الايام الافاعيل .

وجلست يا سمير وأنت تقلب ناظريك فى الحجرة ومحتوياتها ثم ابتسمت قائلا .. اهنئك .. انى ارى انك وصلت لما كنت تريد ...

وكدت اشعر بالفخر رغم كل شيء فها هى اول شهادة باتنى حقا نجحت .. كدت اشعر بالفخر لو لم تردف بان ابنك الكبير فى الصاله وانك تريد ان تقدمه لى .. وصحت بمرح تناديه ..

ودخل احمد .. لا بل سمير الشاب الذى كنت اعرف قبل خمسة وعشرين سنة . انه صورة طبق الاصل منك .. انك لن تموت ياسمير فاحمد وابناؤه واحفاده امتداد لحياتك وستعيش فيهم الى ابد الآبدين .

وتحدثنا كثيرا وعلمت ان احمد على وشك التخرج من كلية

الهندسة المعمارية وانه يرغب عن الوظيفة ويريد ان يدخل مجال الاعمال الحـــره ..

وفتحت فمى لاعارض .. ولكنى اقفلته ثانية وصمت ..

من سيصدقنى لو قلت انى فشلت .. بل أننى كنت اسعى لشىء وضحيت بعمرى من أجله لأكتشف فى النهاية انه سراب ..

آه ليت لى ابنا فاوصيـــه .....

* * *

المقدر

ثلاثة أيام بلياليها والحمى تفرى جسد طفلها ، ثلاثة أيام بلياليها ولم يغمض له جفـن ..

فعلت كل شيء ..

مسحت جسده بالزيـت ورشـت فوق ذلك الزيت انقـرض المطحون .. ولكن لا فائده .. لم تنزل الحمى . ولم يكف عن البكاء الذى بدأ صارخا عنيفا وغدا ضعيفا كمواء قط وليد .. فذهبت به الى الفكى .. وهز الفكى رأسه عدة مرات وغمغم .

ـ أصابته عين شريرة .

ورش رأسه بماء بعد ان تمتم وتفل عليه . .

ولكن ياسيدنا عين من هذه التى أصابت ولدى .

وهز الفكى محجوب رأسه بعنف وصاح باعلا صوته

ـ لا ... لا

وأخذ جسمه ينتفض .. واتسعت حـدقتاه وشخص بهمـا الى السقف وهو يزوم . .

ـ ارحموها .. أرحموها فهى لا تدرى ما تقـول .

وارتعدت اوصالها .. ودخل قلبها رعـب أكيد فارتمـت على الأرض تقبل قدميـه

ـ سامحنى يا سيدى .. أنا غلطانه . .

دستور يا أسياد .. دستور يا أسـياد .

وصاح بها الفكى محجوب وقد عاد اليه بعض الهدوء فقد وقعت الفريسه واشار اليها باصبع تهتز من الانفعال .

ـ غرامة خمسون قرشا .

وأمتدت يدها الملهوفه الى طرف طرحتها وفكت الصرةووضعت المبلغ الذى طلبه الاسياد تحت طـرف البرش .. وخرجـت تحتضن

وحيدها ..

ولو نظرت عائشه خلفها لرأت الفكى وقد ارتسمت على شفتيه نظرة جهنمية ويده تمتد الى تحت البرش لتدس المبلغ فى جيبه .. ثم تعود الى وجهه الملامح الصخرية استعدادا لاستقبال صيد جديد .

« أن غرامة خمسين قرشا تهون فى سبب ترضية الاسياد .. لقد اوشكت ان تغضبهم .. ولكنهم اشفقوا عليها وعلى ولدها نظير خمسين قرش .

« خمسون قرشا .. انها ثمن ثلاثة اطباق من الخوص ستسهرين يا عائشة على ضوء السراج الخابى تضفرينها ثم تحملينها تحت ثوبك الاسود الفضفاض الى التاجر وسيفحص التاجر تلك الاطباق بعينية الحوصاوين وسيجسها باصابعه القاسية يختبر متانتها .. ثم يلقيها جانبا ويخرج محفظته المنتفخة دائما ويعبث بها قليلا كالمتردد .. ثم يخرج ورقه من فئة الخمسين قرشا ويدفعها اليك وكأنه يلكزك فى صدرك ...

« المحفظة المنتفخه ...

أن عينى طفلها بدأتا تنتفخان هذا الصباح . ولكنه سيشفى .. أن الفكى عرف ما اصابه ورش على رأسه الماء المسحور . لابد انه سيشفى ... وكل شىء يهون فى سبيل ولدها ووحيدها ...

« أنه يشبه أباه الى حد بعيد .. كل من يراه يقول ذلك ... رغم انه لم يتعد السنتين من عمره بعد .

« ولكن أين أباه الآن ؟ ليته كان بجانبها يعينها ويواسيها ...

« ترك الأرض التى كان يفلحها .. وترك النخيل ...وسافر الى المدينة الكبيرة البعيدة بحثا عن الرزق... لم يكن قد مضى على زواجهما شهر ، قال لها ليلة سفره .

ـ سيكون لنا أولاد ياعائشه ... وسيحتاج الاولاد الى مصاريف اريدهم متعلمين .. اريدهم احسن منى ، افنديه يلبسون البنطلون .. والأرض شحيحة ومحصولها قليل .

وذهـــب ....

أرسل لها فى بأدىء الامر مصاريف .. بل وارسـل لها صورة لاتزال تحتفظ بها فى الصندوق الكبـير ... كان يبدو فى الصـورة بصحة وافره . بل انها ابتسمت حين رأت جسـمه يمتلىء ... ولكن المدينة ابتلعته فى النهاية ... وانقطعت اخباره

فتـح الطفـل عينيه بصعـوبة ونظر اليـها . واسرعت هى الى البيت لتريحه . بدأت تظهر كرامات الفكى ... شىء لله يا أسياد

ولكن الخاطر الح عليها من جديد.. « عين من تلك التى أصابت ولدها ؟ انها لا أعـداء لها ... ولا تريد بأحـد شرا ... حتى تلك المرأة والتى قالوا انها بيضاء ذات شعر ناعم مسترسل ... تلك المرأة التى خطفت زوجها وجعلته ينساها وينسى أهله وارضه ونخيله ، حتى تلك المرأة لم تحقد عليها بل سامحتها وسامحته هو أيضا « انها اقدارنا وما علينا سـوى التسليم والرضـوخ »

قال لها الفكى أن زوجها سيعود ... ولكنه كعادته كان غامضا فلم يقل لها متى سيعود ، وبأى حال سيعود .....

« من صاحبة تلك العين الشريره يا ترى ؟ رفض الفكى ان يصرح باسمها ... لكنه يعرفها ..فلابد أن سكان العالم السفلى قد اخبروه ولكنهم اشترطوا عليه ان يكتم السر ... ولكن لماذا ... وماذا لـو عرفت ... انها لن تزيد على التحـايل على تلك المـرأة حتى تقص خصلة من شعرها فتحرقها تحت قدمى الطفل فينقل السحر ويعـود له الشفاء ... لا بأس .... فللاسياد طرقا وسلوكا لا يفهمها الأ امثال الفكى محـجوب ....

«عشر مرات تحمل النخيل ثمارها وتلدها منذ انقطعت اخباره .. سوى همسة هنا او تلميحة هناك ..

«قالوا لها اشتكيه ... فهزت رأسها رافضة ، لا .. انه ابن عمها وبعلها وسيعود . وسوف تنتظره حتى يعود »

اخذت ورقة وشكلتها على هيئة انسان وامسكت بيدها ابره

هذه عين سكينه بنت فاطمة .. وثقبت الورقه وهذه عين خديجه بنت التومه وثقبت الورقة .. و.. نعم يجب ان تنسب كل منهن الى امها فعالم الارواح لا يعترف بالاباء .

واعتصرت ذهنها .. لا انها لم تنسى احدا .. آه .. الا .. الا تلك المرأة البيضاء ذات الشعر الناعم المسترسل .. ولكن عائشة لاتعرف اسمها ناهيك عن اسم امها .. وعلى كل فهى بعيده ولا يمكن ان تكون قد حسدت ابنها من ذلك البعد .

اشعلت النار فى الورقة ودارت بها عدة دوارات على جسد الطفل المسجى وهى تشهق وتتمتم بكلمات وعتها عن امها ..

لابد ان تكون العين الآثمه هى واحده من العيون التى حرقتها الظلام يزحف ليغطى الكون بجناحيه السوداوين .. قامت لتشعل السراج جست جسد طفلها ..

لم تنزل الحمى . .

قالت جارتها بعد ان قربت السراج ونظرت اليه

ـ ان كان له عمر فسيعيش .

ومصمصت عمتها الضريره بشفتيها الذابلتين وقالت .

ـ ادينى عمر وارمينى البحر .

مرت بذهنها المستشفى .. ولكن ما الفائده ؟ لقد ذهبت خديجه جارتها بطفلها الى المستشفى وعادت به بعد ايام جثه هامدة .

ونظر اليها الفكى يومذاك بتشفى وقال ..

ـ وديتيه الدكاتره كتلوه ليك ؟

عادحامد زوجها بعدغيبته الطويله .. كما تنبأ لهاالفكى محجوب ولكنه عاد مريضاً هزيلا لا يقوى على الوقوف .. استند على كتفها وهو ينزل من السياره التى أتت به .. عاد اليها حطاما يسعل وينفث دما .. ذهبوا به الى المستشفى وقبعت بجانب سريره تفترش البلاط .

قال الدكتور ذو النظارة الزجاجية والنظرة الحاده .

ـ محتاج لغذاء جيد وراحه كامله ..

واخرجوه .. عادت به الى البيت . .

قال لها يوما بانفاس متقطعه بين سلسلة من السعلات .

ـ توددوا الى حين كنت أعمل واكسب . كانوا جيرانا لى . عاملونى كواحد منهم .. اشعرونى بان زواجى من ابنتهم نوع من رد الجميل .. استغلوا وحدتى وضياعى فى المدينة التى لا ترحم .

وضعت يدها على جبينه الملتهب ومسحت العرق اللزج الذى كان يتفصد منه ... وقالت بمسكنه .

ـ ما فات فات ... انس كل شىء وحاول ان تنام .. يكفى انك عدت لاهلك وبلدك .

ولكنه هز رأسه بعنف ... ورأت دموعا تترقرق من مآقيه واستطرد بصوت واهن ضعيف .

ـ مرضت فخافوا على ابنتهم من العدوى . حتى هى تجنبتنى . ثم رمونى فى مصحة بعيده .. شهور لم أر واحدا منهم ... ثم جاء ابوها وجلس على بعد وقال .

ـ أن ابغض الحلال عند الله الطلاق .

وانصعت ... وعدت اليك .. ولم تشعرينى بانى غبت عنك وانى اهملتك و .....

وصمت .

لم يمض على ذلك اكثر من اسبوع خرج بعدها احد الرجال وقال .

ـ قضى أمر الله .

شق صراخها كبد السماء .

وجاءها صوت الشيخ المهيب .

ـ وما صبرك الا الله .

وصبرت .. ان رجلها لم يمت فقد وضع فيها مضغة اخذت تتحرك .. كم فرحت واغتبطت حين ولدته ولدا .. سيعوضها عن عمرها الضائع سيرث ارض ابيه ونخيله ... سنوات قليلة تمضى ويفلح

ابنها تلك الأرض . لن تدعه يذهب الى المدينة .

كاد قلبها يقفز من بين ضلوعها صار تنفس طفلها شخيرا .. انها تعرف ماذا يعني ذلك لقد سمعته من قبل .. قبيل موت ابيه واندفعت جارتها بالسراج الى الطفل تتفحص وجهه .. وتجس جسده .

التاجر يتفحص الاطباق ويجسها .. زحفت الى ركن وتكومت فيه واخذت تنهنه بالبكاء هرولت الجاره تدعو بقيه الجيران . .

قال الشيخ بصوته الاجش

ـ أنه صغير .. لا داعي لان يبيت حتى الصباح واقتربت خطواته منها ووضع كفه على رأسها قالت دون أن ترفع عينيها من التراب .

ـ ادفنوه بجانب أبيه

قال الشيخ

ـ الصبر .. الصبر

ولم ترفع رأسها وتمتمت

ـ الصبر مر يا مولانا ، لا زوج ولا ولد .

ـ ان صبرتم اجرتم وأمر الله نافذ وان ما صبرتم كفرتم وامر الله نافذ .

وقالت جارتها .

ـ ما باليدحيله ..

وجاء صوت اخرى

ـ انه لم يكن من أهل هذه الدنيا

واختلطت الاصوات وتداخلت الصور واغمضت عينيها .

«هاهو زوجها حامد يتقلب فى فراشه كما كان يفعل فى الفترة الاخيرة من مرضه .. جبينه يتفصد عرقا .. صوته الواهن يطلب ماء .. هست ان تقوم فتسقيه ولكن قوة لا تدريها منعتها من الحركة .. ولكن ها هو طفلها يدرج بخطواته الطفولية انه فى لباس ابيض شفاف يحمل فى يمينه ابريقا من الفضه .

نادته ولكنه لم يرد عليها ولم يندفع الى احضانها كما كان يفعل بل ذهب الى ابيه يسقيه .

واستيقظت ولا زالت الابتسامة عالقة بشفتيها . لدهشة الجميع

الفهرست

	صفحة
الاهـداء	
ابو عـــكاز	١
وادى النحاس	٩
الثمـن	٢٥
الدنيـا بخير	٤٣
عثمان ارم	٥٣
ســراب	٧١
المقـــدر	٨١